غـــالية

غالية

قصص

محمد الزلباني

تصميم الغلاف: محمد عيد

تدقيق لغوي: خالد عواد

رقم الإيداع:7407 /2015

I.S.B.N: 978-977-488-386-6

دار اكتب للنشر والتوزيع



الإدارة: 10 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة.

المدير العام: يحيى هاشم

هاتف: 01144552557 - 01147633268

E – mail:daroktob1@yahoo.com

Facebook: دار اكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى، 2015م

غاليـــة

محمد الزلباني

قصص



دار اكتب للنشر والتوزيع

الإهداء

إلى المرأة التي لاقت أهوال شيّبتها قبل الثلاثين ، وعلى إثرها شاب شعري قبل العشرين .. أمي .

إلى من له الفضل عليّ،من منبت رأسي إلى أخمُص قدمي.. أبي.

إلى "ثائر " .. أخي الذى باختياري لإسمه ، منحني فرصة أن أختار للمرة الأولى في حياتي .

إلى "إيناس" تلك التي تجاسرت واقتحمت عالمي بالرغم من علمها بجنوني .

علبة كليوباترا



ثرى... تو...وان.

بتلك الكلمات الثلاث التي يلفظها مصطفى مخرج البرنامج، أتيقن أنني البهلوان الذي ينتظره الجمهور كل مساء، كي يخرج ما في جعبته من ألعاب سحرية، وكرات النار من فمه.. أظن أن تلك الكرات الملتهبة هي ما ينتظره الجمهور بشغف بالغ.

تلك الكرات تتمثل في سبّي وتحريضي على كل من تسول له نفسه الدنيئة، القدح في ذمة حكومتنا الغرّاء. فالأمر ليس بالعسير، بل أبسط مما يتخيله الإعلامي المبتدئ، أو من تؤرقه المبادئ والقيم.. ما أسهل أن أتهم الناشط الفلاني بالعمالة، الخيانة، التمويل من جهة أجنبية أو حتى "أجندة " وما إلى ذلك من مصطلحات حفظها المواطن العادي من كثرة تكرارها على أذنه.

ذلك المواطن الذي يحب أن يستمع إلى من يريحه، من ينأى به عن المهاترات والجدالات العقيمة، كفقاعة الدستور أولًا أم الرئاسة!.

أفعل كل ذلك ببراعة يحسدني عليها زملاء المهنة في المحطة، لا أبالغ إن قلت.. والمحطات الأخرى أيضًا - بالتأكيد لا أعني تلك المحطات المخربة، التي تبثُّ أفكارًا لهدم الدولة، والسير بها نحو الهاوية.

في البدء.. كان البرنامج، مجرد برنامج منوعات، موضوعاته لا تخرج عن إطار الترفيه.. لا علاقة له بالسياسة.. ومن كان يتحدث في السياسة في تلك الفترة؟! إلا الذين كانوا يظنون أنفسهم حماة الشعب من النظام المستبد. هم أنفسهم لم يرحموا بعضهم البعض، هم من سبقونا لذمهم وتجريسهم على الملأ!

والآن، وبعد قيام الثورة، لم يكن للبرنامج تصنيف محدد، فلا هو ترفيهي، ولا هو سياسي، ولا حتى رياضي.. أتحدث في كل شيء، وشتى الموضوعات - يعني هي جت عليّ! - لكن مهلًا.. ليس هناك ثمة وجه للمقارنة، فأنا مختلف عنهم بالكلية، بل أنا أفضل منهم، على الأقل، لم يحدث ولو لمرة واحدة، أن جاءني ضابط من أمن الدولة ليجبرني على قول شيء أكرهه، أو حددت لي إدارة المحطة الموضوعات التي ينبغي عليَّ التحدث فيها أو العكس.

لكن، هل كنت في انتظار أن يُملي عليّ أحدهم شيئًا؟!

كلا.. فأنا جئتهم مؤمنًا بكل تفعله الدولة بحُلوه وحُلوه (نعم وحُلوه)، أو فلأقل.. إنني جئتهم مُبَرْمجًا على تمجيد الحكومات المتعاقبة، وتقديس الرئيس (أقصد سيادة الرئيس السابق) وإلهاء الناس

بأي كلام.. لا مانع أيضًا من تمجيد الثورة إن لزم الأمر، بعد أن كنت أهيل التراب على كل من وطأت قدمه الميادين، حتى أنني كنت من أوائل الإعلاميين الذين قالوا عن خالد سعيد (مدمنًا)، وأنه مات إثر بلعه لفافة من البانجو، ولم يمت نتيجة ضرب مبرح على أيدي بعض أفراد الشرطة!

كثيرة هي المرات التي أستمع فيها إلى السباب الموجه لي في الشارع، وأراه بعيني حين أتصفح مواقع التواصل الاجتماعي.. وبما أني اعتدت على السبق، فأنا من الأوائل الذين أطلق عليهم لقب "عر."، حتى أنتشر هذا اللفظ كالنار في الهشيم في أرجاء المحروسة، حتى أصبح الآن يقال لكل من هبّ ودبّ. حتى الألفاظ البذيئة في مصر أصبحت مهانة.

لن أدعي زورًا بأنني لا أتضايق عند سماعي لهذا اللفظ أو غيره يوجّه لي، لكن ماذا عساي أن أفعل؟ ألا ينطبق عليَّ هذا اللفظ؟ ما الذي كنت أنتظره؟ هل كنت أنتظر أن ينعتوني بالمناضل، أو يلقبوني بجيفارا العرب مثلًا؟!

كنت حينما أشكو إلى الزملاء ال "معر..." ما يوجه لي ولهم من سباب تدهشني ردة فعلهم، حين يجمعون بيقين يدعو للعجب، أن من يسبوننا هم أولئك المخدوعين من الخونة وأصحاب الأجندات

الخاصة، وأننا كإعلاميين شرفاء علينا أن نتحمل ضريبة وطنيتنا المفرطة!.

لكن.. كم مرة سخرت من هذا الهراء! عن أي وطنية نتحدث؟ أغلب هؤلاء ولدوا وفي أفواههم ملاعق من ذهب، عملوا بالمهنة عن طريق الواسطة.. يا له من عمل غير شريف! وأنت؟ هل سلكت الطريق الشريف للجلوس على هذا المقعد أمام تلك الكاميرا؟ أم أنك تحاول جاهدًا أن تقنع نفسك أن مكانتك تلك جاءت نتيجة موهبتك الفذة وغيرتك على الوطن.. إلا إذا كنت تعتقد أنّ في النفاق والتملق موهبة، وإلهاء الفقراء عما يهُمُّهُم غيرة على الوطن!. مهلًا .. أنت الآن تتحدث عن الفقراء، هل تذكرهم؟ ألم تكن منهم يومًا ما؟

آآه.. لعنة الله على تلك الأيام، لا أريد أن أذكرها.

***

– جاهز يا أستاذ؟

ردّني هذا السؤال الذي أتاني عبر سمّاعة صغيرة في أذني من شرودي الذي طال، لعله جاء في الوقت المناسب، قبل أن أخوض في الذكريات الموجعة.

أغلقت عينيّ، علّني أظفر بشيء يعيدني لواقعي الآن، وحياتي الجديدة، بعد برهة فتحت عينيّ على اتساعهما، لأجد أمامي فتاة لم

أرها من قبل تضع على جبهتي شيئًا لا أعرف كنهه، لعله بودرة – أصبحت الآن تضع على جبهتك المساحيق كالنساء بعد أن كنت في السابق لو وضع الحلاق على جبهتك فوطة ساخنة تشعر بالخجل – يبدو أنه اليوم الأول لها في المحطة، أو لعله اليوم الأول لها في تلك المهنة، وإلا.. لَمِ تلك الرعشة بيدها حين تضعها على جبهتي؟ لعلها الرهبة!

لَمِ أثقل على نفسي هكذا؟

عليَّ الآن أن أكمل ما بدأت والسير في الطريق وعلى الطريقة التي اخترتُ.. صِحت:

– أنا جاهز يا مصطفي ممكن نبدأ.. إتكل على الله.

***

ثرى... تو... وان

التفتُّ نحو الضوء الأحمر، ناظرًا صوب الكاميرا، عبثًا تناولت بعض الورق من على المنضدة في ادعاء مبالغ فيه للجدية، وضعت الورق مكانه مرة أخرى ثم قلت:

– أعزائي المشاهدين.. الحلقة النهاردة ممكن تكون تقيلة على البعض.. لكن نظرًا للأحداث الراهنة، اللي بيتوجب علينا مواكبتها.. هنتكلم على اللي بيحصل.. إنما ده ميمنعش إننا نحاول نبسطكم..

فعشان كده هتكون معانا المطربة الشابة " سُها".. أما دلوقتي هنطلع فاصل ونرجع ليكم تاني.

اتجهت صوب غرفة الإخراج، لأجد مصطفي أمامي، قلت له مداعبًا:

- مين الأمورة الجديدة دي؟

- تقصد مين؟

- البنت بتاعة المكياج.

- آه.. دي بنت غلبانة كده وحابّة تاكل عيش

ولأني أعرف مصطفي جيدًا، وعلى يقين بخبث نياته قلت له ساخرًا:

- ربنا يقدرك على فعل الخير يا شيخ مصطفى!

- وإياكم يا أستاذنا.

لم أسأله عما ينوي عرضه من فيديوهات أو تقارير في تلك الليلة، فقد اعتدت على أن تعرض التقارير أمامي وأعلق عليها كيفما أشاء، نظرًا لتتابع الأحداث بطريقة هيستيرية.. انشغلت عنه بالفتاة الجديدة، التي لا أعلم ما الذي يجذبني تجاهها، إنما ما أشعر به حقًا.. هو أن تلك الفتاة تعيدني لماضٍ حاولت جاهدًا أن أمحوه.. لكن، ما الذي في هذه

الفتاة يعيدني لذلك الماضي الأليم؟ هل نظرة عينيها المنكسرة التي تذكرني بأمي أيام العوز المريرة؟

ناديت عليها سائلًا إياها، إن كان هناك شيء يستدعى التعديل في هيئتي قبل الظهور مرة أخرى على الشاشة.

- مفيش حاجة يا أستاذ .. فيه حاجة حضرتك شايفها؟

- يا ستي تعالي بس هو أنا هاكلك.

هرولت نحوي باسمة بخجل أو بخوف لا أدرى:

- أؤمرني يا أستاذ.

- الأمر لله.. إنتي إسمك إيه؟

- زينب.

- جميل إسم زينب.

- الله يحفظك يا أستاذ.

- زينب.. إنتي تعرفي إنك شبهي؟.. مقصدش يعني في الشكل.. أكيد إنتي أحلى بكتير.. أقصد بتفكريني بأيام.... يللا بقى كانت أيام "قلت لنفسي: الله لا يعيدها".

كعادته يأتي مصطفي في وقته، كي ينتشلني من الماضي الذي لا مفر منه، لدرجة أنه يحاصرني بأشباه له في الحاضر..

- جاهز يا أستاذ؟

رددت من فوري:

- جاهز يا سيدي.. قول بقى.. ثري... تو... وان.

***

- ثرى... تو... وان.

فعلت ما أفعله دائما.. من الاعتدال في الجلسة، ثم النظر صوب الكاميرا، والعبث بالأوراق الموجودة على المنضدة. أخبرني مصطفي بأننا الآن سنشاهد تقريرًا أعدته سالي جمعة، عما حدث في شارع محمد محمود عصر اليوم.

أطلّت سالي بوجه شاحب، قلت لنفسي: لعله الإرهاق، إنه بالفعل عمل شاق، خصوصًا في تلك الفترة الملتهبة بالأحداث.

عرضت سالي بعض الفيديوهات، لضرب بالحجارة من بعض الصبية والشباب، يقابله ضرب بالرصاص - أنا على يقين بأنه رصاص حيٌّ - لكني لا أقول ذلك للجمهور، وإلا كيف يموت المتظاهرين إثر كل واقعة تحدث هذه الأيام؟ ما فعلته سالي أدهش الجميع في الأستوديو حين صورت مع بعض رفاق القتلى وذويهم وهو ما أثار غيظ مصطفى، ووضعه في حرج بالغ، لكنه لا يستطيع إيقاف

التقرير، لأسباب عدّة، أهمها، أنه يتحمل نسبة كبيرة من هذا الخطأ الفادح، لأنه لم يطّلع على التقرير قبل بثه على الهواء.

ما فعلته سالي جعل الجميع في حالة ذهول، أما أنا فقد كنت في حيرة من أمري، لا أدرى ماذا أفعل، أو ما الذي يتوجب عليَّ قوله أثناء تعليقي على التقرير؟، هل أسب وألعن وأخون هؤلاء الشباب كعادتي؟ أم أتهم سالي بالتآمر علينا وعلى مصر؟

تابعت التقرير كله، وجاء دور سالي كي تنهي التقرير، وهنا تكمن الكارثة حين قالت ما نصّه:

"لماذا يقتل هؤلاء؟ ألم تقم الثورة من أجل حرية التعبير؟ وهل يُعقل أن تُقابل الحناجر بالرصاص؟ أي ثورة هذه؟ وأي حرية تلك؟

عزيزي المواطن انظر إلى هذا الشاب.. يقال: إن اسمه حسام، حين قتل، وأثناء بحث رفاقه في متعلقاته عما يدل على هويته، لم يجدوا سوى سبعة عشر جنيهًا، وتذكرة مترو، وعلبة سجائر بها سيجارتان، وعلبة ثقاب.. إنها مصر.

كانت معكم سالي جمعة من شارع عيون الحرية "محمد محمود سابقًا" دامت لكم حريتكم.

لم تعُد الكاميرا إليّ، لأن مصطفي قد لاذ بفاصل إعلاني، جُلت ببصري في الجميع مذهولًا، لمحت زينب تبكي، لا أخفي أن هناك ما

هزني في هذا التقرير، أو بالأحرى أعاد إليَّ ما أخشاه، وأفر منه... الماضي.

حين ذكرت سالي متعلقات هذا الشاب، توقفت عند السيجارتين الموجودتين في علبته الكليوباترا، كدت أبكي عندما عادت بي الذاكرة لأيام العوز، وكيف أنني كنت أشتري أربع سجائر "فرط" بجنيه واحد، لأني حينها كنت لا أملك ثمن علبة كاملة.

هل آن وقت ثورتي كما فعلت سالي؟

كلا.. فقد أصبحت مسلوب الإرادة لا أقوى على شيء، لفظ الثورة هذا،لم يعرفه قاموسي الخانع الذليل، الذي استمرأ النفاق، حتى أصبح من طبائع الأمور.

مجرد مكالمة تليفون لا تتعدى الدقائق الثلاث، أتتني من رئيس القناة، أخمدت البركان الزائف بداخلي، أعادت الأمور إلى طبيعتها، مجرد كلمة آمرة قالها لي غيرت كل شيء " إتصرف يا بيه".
عدنا إلى الأستوديو بعد انتهاء الفاصل، أنقذني أن هناك ضيفًا على شاكلتي وشاكلة القناة سيجلس معي ويعقب على الأحداث والتقرير المربك، مما جعلني أشعر ببعض الراحة، أنني لن أتحمل وحدي صب اللعنات على سالي وتقريرها، عزفت أنا والضيف على نوتة النفاق والكذب، ثم جاءت الفقرة الأخيرة، وحضرت "سُها" بثوب عارٍ، غنت ورقصت وعلى إثرها رقص وصفّق الجميع. بعد انتهاء الحلقة، تذكرت زينب، التي لم أر لها أثرًا مذ رأيتها تبكي أثناء عرض التقرير،

سألت مصطفى عنها، فأجاب: قالت إنها تعبانة ومشيت.. شكلها مش هتستحمل شغلنا. أومأت برأسي مبديًا الموافقة، ولسان حالي يقول:

- قصدك مش هتستحمل تعر...



غالية



1

لا أعرف إن كان يتحتم عليَّ أن أحكي قصتها أم قصتي، وأيٌّ القصتين أجدر بالاهتمام، لكن هل في قصتي ثمة ما يحكى؟ أم أن ما جرى لتلك المسكينة نكأ كل جراحي؟ فلأدع القلم يسرد كما يحلو له، علّه ينعم بالحرية التي نفتقدها! كدت ألعن مصر كلها، حين ورد إليَّ خبر نقلي إلى مدرسة نائية في الأرياف. ما فعلته في مدرستي الحالية – أو تلك التي كانت – لا يستدعى كل تلك الضجة، وهذا القرار التعسفي كان بمثابة توطئة لرؤية ما يخبئه الوطن من عفن، على كل حال، ما زلت أحتفظ بقوتي "الظاهرة"، بل إن ما قاله لى أستاذ "فتحي" مدير المدرسة لم يجعلني أراجع معتقداتي بأن للطالب الحق في نقد ما هو مقرر عليه من كتب مدرسية. لن أنسى ما حييت الحوار الأخير الذي دار بيننا:

– إنت مفكر إنك باللي عملته ده هتخلق من الطلبة دول طه حسين ولا رفاعة الطهطاوي؟! لم تثني نبرته الساخرة عن الرد عليه:

– ممكن يتخلق منهم أفضل من طه حسين ومن رفاعة الطهطاوي.

– إنت تعرف مين السبب في نقلك؟

- لأ معرفش.. ومش عايز أعرف.

- على أي حال يهمني إنك تعرف إن السبب في نقلك ولي أمر الطالب الي انت شجعته على الإستهزاء بكتب التراث وبنقد السيرة.

- مش مشكلة..أنا كنت متخيل إن ممكن يحصل أكتر من كده..كويس انها جت على أدّ النقل.

***

أثناء عودتي للمنزل، لم أكن أبالي بما حدث، بقدر ما كان يشغل بالي وقع الخبر على أمي، التي ستحزن فور سماعها خبر نقلي، أو بالأحرى سيؤلمها فراقي.. لا سيما وأنا كل ما تبقى لها في الحياة بعد وفاة أبي وأنا في سن مبكرة..لست مضطرًّا لأن أكرر الإكليشيهات المحفوظة، عن تعبها معي،وكيف رفضت الزواج بعد وفاة أبي، واعتمادها على ميراثها الضئيل في تدبير شئوننا حتى أنهيت المرحلة الثانوية، حتى نفد كل ما لديها، فاضطُررت للعمل أثناء دراستي في الجامعة، بالطبع هي رفضت في بادئ الأمر، لكن بعد إلحاح مني وافقت على مضض.عدت إلى البيت، وأنا متوقع كل حرف ستلفظه، بل إنني أرى كل دمعة ستذرف على وجنتيها..دخلت فوجدتها تنتظرني كعادتها بابتسامتها المشرقة، ووجهها الحنون،وبنظرة ثاقبة سبرت أغواري وبادرت بسؤالي:

- مالك يا علي؟

- أنا كويس.. بس عندي خبر كده ممكن يضايقك.

- خير كفا الله الشر.

- أنا اتنقلت مدرسة تانية.

- فين يعني؟

- بيقولوا إنها قرية في ميت غمر.

سحبت مقعدًا، وجلست عليه بتثاقل، أخذت نفسًا عميقًا ثم قالت:

- يلا الحمد لله خير.. برضه ده أحسن مليون مرة من إنك تفكر في الهجرة وتسيبني يا علي.. على الأقل هتبقى معايا في مصر وهشوفك كتير.. المهم متبقاش بعيد عني.. ملناش غير بعض دلوقتي.

حين ذكرت لفظ الهجرة، جال بخاطري جواز السفر الذي استخرجته فور تخرجي في الجامعة، حين فطنت أن لا سبيل للنجاة من هذا المستنقع، سوى الهرب، وتركه ينعم بقذارته، لكن الفكرة تبخرت حين قالت لي أمي.. إنني بهذا أهرب من مشكلاتي، وأني بفعلتي تلك أتركها وحدها، وأفكر في مصلحتي الشخصية فقط.

لا أنكر أنني في الطريق وأثناء عودتي للمنزل بعد سماعي خبر النقل، فكرت مليًّا في جواز السفر الذي يلوح في الأفق كلما أتعثر في حفرات الوطن الكثيرة. لكني سرعان ما أطرد الفكرة عن خاطري، حين أذكر أمي التي ليس لها أحد سواي، وكيف أتركها بما تحمله من مرض، تحاول جاهدة أن تخفي عنى آثاره، كيلا تحملني أعباءً فوق التي أحملها.

مهلًا.. مالي أسترسل هكذا في قصتي؟ فأنا لم أكتب حرفًا واحدًا عما حدث لتلك المسكينة التي نكأت كل جراحي حتى الآن؟ لعلها النزعة الذكورية التي تزدان بها بلادنا، هي ما سيطرت على تلابيب عقلي، جعلتني أغفل عن ذكرها حتى الآن!. لكن.. هل كنت يومًا من هؤلاء الذين يتباهون بذكورهم؟! لا أظن. ما فعلته أمي معي، جعلني شخصًا يقدس الأنثى، بل كانوا ينعتونني في الجامعة بال- "فيمنست"*، القائلين لهذا اللفظ كانوا من الأشخاص الذين يكنون لي ولأفكاري بعض التقدير، أما من كانوا يكرهونني أو يشعرون بالغيرة نحوي، كانوا يسمونني بـــ "ديك البرابر"، "أخو البنات"، نظرًا لعلاقتي الجيدة بأغلب بنات دفعتي، بالفعل كنت أشعر بالغيرة التي يكنها لي أقراني من الشباب، حين أتلو قصائدي على الدفعة، فتهتز القاعة بتصفيق حار، أغلبه بأياد أنثوية.. آآه يا علي ها أنت مرة أخرى تسترجع أيام الجامعة، وتتحدث عن نفسك وتغفل عن غالية!

---

* الشخص الذي يؤمن بالمساواة بين الجنسين سياسيًا واقتصاديًا

2

فلتقبلي أسفي يا غالية.

لكن دعيني أحكِ كيف كان الطريق للمدرسة التي كنت أنت فراشتها، فأنا أظن أن من التقيتهم بداية من الناظر مرورًا بأبلة عائشة وأبلة عفاف، كانوا سببًا بأن أتيقن أن ما حدث لك، سيحدث لكل الإناث، ليس في قريتك فحسب بل في كل قرى المحروسة، وربما مدنها..

بعد طابور الصباح الرتيب، الذي كرهته طالبًا ومدرسًا، عرفني الناظر على الزملاء، وعرّفهم بي..مشكورًا وافق على طلبي بأن أدخل أحد الفصول المنوط بي التدريس لهم للتعارف، وليس كمدرس، كي أكسر حاجز الرهبة بيني وبين الطالبات.

***

طلب الناظر من إحدي المدرسات، وتدعى عائشة، أن تأخذني لأحد الفصول الخالية، سرت وراءها أفكر في المكان الذي سأسكن فيه، وهل سأتحمل العيش في تلك القرية، أم أذهب إلى المركز وأسكن مع الزملاء المغتربين، طاب لي هذا الاقتراح الأخير. لم تتوقف عائشة عن الثرثرة التي لم أسمع منها سوى جمل متناثرة أغلبها نصائح لي عن تحمل شقاوة الأولاد:

– أصعب حاجة في الدنيا إنك تدرس لبنات.. متستغربش إن إنا ست وبقولك كده..

– بس دول عيال صغيرة.

– دول عيال؟ دول قرود!

دلفت عائشة أحد الفصول، تلوح بعصاها للفتيات، صاحت:
– بس يا بنت إنتي وهي.. الأستاذ علي مدرس العربي الجديد.

لم أتمالك نفسي من الضحك، حين صاحت الفتيات في نفس واحد "هييييييييييه" فور إنهاء عائشة لجملتها.

في البدء لم أجد ما أقوله، نظراتهن إليّ توحي بالقلق، كن في انتظار أن أبادر بالحديث، بالطبع أنا من سأبادر بالحديث، ألست مدرسًا؟! خطر على ذهني أن أبدأ بالتعارف عليهن، فقلت:

– يلا يا بنات كل واحدة كده تعرفني بإسمها.

أشرت للصف الأول على يميني، انتفضت الأولى من مقعدها قائلة:

- أماني حسام.

أشرت لها بأن تجلس قائلًا:

- كل واحدة تعرفني بإسمها وهي قاعدة،

سألتني من تجلس بجوار النافذة المطلة على الشارع:

- وإحنا قاعدين يا أستاذ؟!

- آه وانتم قاعدين.

- بس كده عيب!

بيد أنها رأت تغيرًا ما في تعبيرات وجهي فقالت:

- أبلة عفاف بتقول كده.

- لأ..العيب إنك تقومي تقفي..إنتي بنت.. وبنت دي يعنى حاجة كويسة.. خصوصًا إن الموضوع مش مستاهل انك تقومي تقفي عشانه.

ثمة شيء بداخلي جذبني إليها، عيناها تلمعان بذكاء حاد، سمرة بشرتها جميلة ورائقة للغاية، كدت أسألها عن اسمها، لكني تراجعت.. سيأتي دورها، وأسألها عما أريد.

- غالية مصطفي.

هكذا قالت حين جاء دورها.. داعبتها قائلًا:

- إسمك حلو يا غالية.

- عارفة يا أستاذ!

انفجرن بالضحك، سرى بداخلي شعور غريب بالتفاؤل والنشوة، لما رأيته عليهن من إقبال، والأغرب.. شعوري بأن غالية هي السبب في تلك البهجة في ذلك الفصل، بل ربما في المدرسة كلها.

3

لم أجد صعوبة في التأقلم على الوضع والمكان الجديدين، اعتدت على الاستيقاظ مبكرًا والنزول لأحد المطاعم لأشتري إفطاري الذي لا يخرج عن رغيفين، أحدهما محشو فول، والآخر طعمية، ثم أستقل عربة نصف نقل تقلني واثنين من المدرسين إلى المدرسة، نتحدث في موضوعات شتى، اكتشفت أنهما مختلفان معي في كل شيء فكري، لا يتفقان معي سوى في المكانين اللذين يجمعاننا.. المدرسة والسكن، أجري مكالمة هاتفية يومية للاطمئنان على أمي، التي كنت أشعر في كل مرة أن حالتها تسوء يومًا بعد يوم.

خُيِّل إليَّ، أن الوزارة نقلتني لتلك المدرسة خصيصًا، كيلا أبث "سمومي" في فتيات لا تتجاوز أعمارهن الثانية عشرة، على كل حال، أخذت جدول الحصص الخاص بي، وبدأت في شرح المنهج.. يومًا بعد يوم ازدادت علاقتي بالفتيات خصوصًا فصل غالية، شعرت تجاهه بأنه فصل يكتظ بالمواهب، من تجيد الرسم، والغناء، ومؤخرًا اكتشفت أن

غالية لها ميول أدبية، لكن الجميع يجمعن على أن ما من أحد اطّلعَ على مواهبهن قبلي، وأنني لم أكن لأرى شيئًا من تلك المواهب الدفينة، لو لم أخصص يومًا في الأسبوع "للفضفضة"، وأهن يشعرن نحوي بالأمان.

حين سمعت من غالية، أنها تدوّن قصة حياتها خُفيةً، لئلا يطلع عليها أحد، قلت لنفسي ساخرًا: ما الذي تكتبه تلك الفتاة الصغيرة؟! هل عندها ما يكتب في هذه السن؟!

ما هذا الذي أقول؟ هأنا أستخفُّ بفجيعتك وأحلامك كما فعل الجميع معك!

حتى أنا.. لم أكن لأطلع على ما دونته إلا بسبب غيابك لأكثر من أسبوع، سألت عليك صديقاتك فلم يجبنني بإجابات شافية، تجرأت وسألت أبلة عائشة، فأجابت ببرود:

- أبوها حابسها ومش هيجيبها المدرسة تاني..

صُعقتُ حين سمعت ما قالته عائشة.

سألت صديقتك أماني عن بيتك كي أطمئن، تطوعًا منها، قالت لي بأنها ستأخذني بعد المدرسة إلى حيث تقطنين.

4

انتظرت حتى ينتهي اليوم الدراسي، أخذتني أماني وطافت بي أرجاء القرية، كنت أظن أن البؤس الموجود في ضواحي القاهرة لا مثيل له في أي مكان، لكن ما رأيته في جولتي تلك أكد لي أنني كنت مخطئًا، وأن ما أراه الآن يفوق بكثير ما رأيته في القاهرة. سألت أماني عن هؤلاء النسوة اللاتي يحملن فوق رؤوسهن أواني فأجابت: — رايحين عند الترعة عشان يغسلوا المواعين يا أستاذ..

قلت لنفسي: هل ما زالت تلك العادة المهينة موجودة؟ بيد أنني شردت كثيرًا عن أماني، لم أنتبه إلا عندما ساقتني إلى أحد الشوارع الضيقة، فطننت بأني على مشارف بيتك يا غالبة، استحضرت بعضًا من الحديث المغلف عن أهمية التعليم، وأنه لا فائدة من سجن تلك الفراشة وحرمانها من أبسط حقوقها، ولكني أعرف أن كل ما سأقوله بلا جدوى.

جذبتني أماني من شرودي حين أشارت إلى أحد الصبية، أظن بأن عينيّ قد لمحتاه من قبل، لكني لا أذكر أين.. عارف مين ده يا أستاذ؟

– لا يا أماني مش عارف.

– ده محمود.

– محمود مين؟

– لأ بقى.. إبقى أسأل غالية أحسن.. أنا مليش دعوة

توقفنا عند أحد البيوت الطينية، على جدرانها رسمت صورة ركيكة للكعبة، وطائرة، وعبارات كـــ "حج مبرور وذنب مغفور"، "منزل الحاج مصطفي عبد الرحمن"، بيد أن أباها قد عاد لتوه من أداء فريضة الحج. تقدمت أماني، دقت الباب المفتوح على مصراعيه، خرجت بعض الدجاجات وطيور أخرى على إثر دقات أماني، تقدمت مني إحدي النعاج، لم أجد متسعًا للتأمل فيها، فقد لاحت أمامي سيدة أربعينية تحمل صينية بها أرز، قائلة:

– إزيك يا أماني.

– أنا معايا الأستاذ على بتاع العربي جاي يطمن على غالية.

أخذت طرف الخيط من أماني وأكملت:

– السلام عليكم أنا علي مدرس ال.....

مقاطعة:

- إتفضل يا أستاذ علي يا خبر أبيض.. روحي يا أماني نادي لعمك مصطفي عشان يقعد مع الأستاذ. إتفضل يا أستاذ.. دي غالية بتحبك أوي..ثانية واحدة.

دلفت من أحد الأبواب، بعد برهة، سمعت صوت همس، خُيِّلَ إليَّ أنه صوت غالية، نادت عليَّ تلك المرأة الأربعينية، دخلت، رأيت غالية مستلقية على أريكة، متلحفة ببطانيتين، وجهها شاحب، لمحت الفرحة في عينيها عندما رأتني، لكن سرعان ما تحولت إلى بكاء هيستيري، لم أجد مكانًا لأجلس فيه، فجلست على نفس الأريكة التي تحملها.

- المدرسة وحشتني أوي يا أستاذ علي.

- انتي كمان وحشتينا كلنا يا غالية.

- أنا هموت يا أستاذ علي.

- متقوليش كده يا غالية.. لما انتي تموتي أمال مين اللي يعيش!

- أصول أبويا عايز.....

لم تكمل حديثها، حين سمعت صوت سعال أبيها يأتي من الخارج، دلف الحجرة، قمت مادًّا له يدي بالسلام، صافحني ببرود لم أعرف له سببًا، جلس ثم صاح:

– الشاي يا أم غالية.

– هو حضرتك ملكش ولاد غير غالية؟

– أه.

–ربنا يخليهالك... غالية دي غالية علينا كلنا. دي تقريبًا أشطر واحدة في المدرسة.

– تمام.. هو سعادتك منين؟

– من القاهرة.

– وقاعد فين هنا؟

– في ميت غمر.

– كان الله في العون.

– متشكر جدًا... طب خلاص أنا اتطمنت على غالية أستأذن أنا بقى.. شدي حيلك يا غالية كده عشان أشوفك قريب في المدرسة.. الإمتحانات قربت.

قلتها ناظرًا لغالية علّني ألتقط منها ما يبدد شكوكي في عدم عودها، حتى أن أباها لم ينبس بكلمة، كل ما فعله، هو أن همّ من مقعده قائلًا:

– عيب يا بيه ميصحش.. أنا هجيب الشاي بنفسي.

وانصرف، التفتُّ لغالية التي كانت تبكي بصوت غير مسموع قائلًا:

- مالك يا غالية.. إيه اللي حصل؟

لم ترد، استدارت ببطء، مدت يدها أسفل وسادهّا أخرجت كراسة، قائلة:

- دي الكراسة اللي قلت لحضرتك عليها لما سألتني عن موهبتي.. داريها يا أستاذ علي الله يخليك.

أخذها، وضعتها بين كتبي التي كنت أحملها.. لا أعرف لماذا انتابني خوف شديد على غالبة، لم أشعر تجاه أبيها بثمة ألفة. وجدته صلبًا جاف الطباع، لم أنتظر حتى يأتي، نهضت من مكاني، وجدته أمامي حاملًا صينية عليها كوبان من الشاي، لم أشعر بنفسي وأنا أرد عليه بنفس البرود الذي قابلني به، حين أخبرته بأن الوقت حان لرحيلي.. وانصرفت.

لم أجد أماني، ولكني وجدت ذلك الصبي الذي أشارت عليه أماني أثناء مجيئنا إلى بيت غالية، ناديت عليه باسمه، مما جعله يأتي مندهشًا قائلًا:

- انت تعرفني؟!

- آه طبعا يا محمود مش انت قريب غالية برضه؟

شعر برهبة، حين لفظت اسم غالية.

- آه.. هو انت كنت عندهم بتعمل ايه؟

- عند مين؟

- عند عمي الحاج مصطفي

- كنت بزور غالية.. إنت متعرفش انها عيانة ولا إيه؟

- لا طبعا.. عارف.

- وانت زُرتها؟.. بص، أحكيلي بقى وانت بتوصلني على أول البلد عشان أركب لميت غمر.

سار أمامي ثم قال:

- أحكيلك إيه؟

- تحكيلي مزُرتش غالية ليه؟ ألّا صحيح هي مالها؟

- أنا مينفعش أروح هناك أبوها بيكرهني.

- ليه هو انت زعلته في حاجة؟

- خالص والله.. هو بيحب يبعد غالية عني بس، أصل أنا وغالية....

قطعه لحديثه فجأة هزّني، لم أرد أن أثقل عليه، مرت حوالي عشر دقائق، لم ينطق فيها بحرف واحد، أوقفني عند المحطة، ثم قال:

- إنت هتستنى هنا.. العربيات بتيجي تحمل من هنا.

شكرته وانصرفت.

في العربة، حاولت أن أفتح كراسة غالية، لكني على الفور طردت الفكرة، ممنيًا النفس بأن أصل سريعًا كي أتصفحها على مهلٍ، علّني أظفر بما يبدد ظنوني التي أكلت خلايا مخّي المنهكة.

لم أفكر في طعام الغداء الذي كان يعده أحد زملاء السكن، كانت كراسة غالية هي شغلي الشاغل، لم أر على غلافها أي شيء يدل على ما تحويه، بيد أنها خافت أن يطلّع عليها أحد، فتحتها، شرعت في القراءة .. فكان ما قرأت.

***

5

أنا غالية.. مش بحب أقول إسمى بالكامل.. أنا مش قليلة الأدب والله، لكن مش بحب أفتكر حاجات بتضايقني، لما بقول إسمه بفتكر معاملته ليا.. كرهه ليا.. مش عارفة إزاي أنا بقول كلام زى ده.. بس هو دايما بيحرمني من الحاجات اللي بحبها.. المدرسة، لعب الخرنكش* مع أصحابي في الجورن**، محمود.. أكتر حاجة أبويا بيكرهها في كل دول هي محمود.. مع إن محمود طيب أوي والله.. كان نفسي تبقى ظروفه حلوة وما يسيبش المدرسة.. لكن أبوه مات، ساعتها قالي: يا غالية أنا هسيب المدرسة واشتغل في النقاشة عشان أصرف عليا أنا وأمي.. متزعليش يا غالية.. عارفة لما أشتغل هجيبلك كل الحاجات اللي انتي بتحبيها.. فرحت أوي لما قاللي: هاجيبلك التسجيل عشان نسمع عليه الأغاني بدل ما انا بغنيلك وتقوليلي أسكت صوتك وحش..

---

* اسم يطلقه بعض المناطق الريفية على لعبة الحجلة أو ما تُسمى في المدن بالـــ "أولى".

** مكان كانت تُخزّن فيه الحبوب قديمًا.

أمي كمان بتحب محمود.. بس هي بتخاف من أبويا، كانت بتساعدنا لما محمود ييجي عندنا في رمضان ويطلع على السطح عشان يعلق الزينة.. كانت ألوانها حلوة أوي.. كنت بقول لأمي لو أبويا شاف الألوان دي مش هيكره محمود أوي كده ويبعدني عنه.. تقولي عيب غالية.. ألوان إيه وبتا ع إيه بس.. والنبي إنتي فاضية إنتي ومحمود بتاعك ده.. بصراحة كنت بحب محمود وهو بغنيلي ولما كنت بقوله إسكت عشان صوتك وحش كنت بحب أشوفه وهو بيقولي خلاص نغني أغنية تانية، كان حافظ أغاني كتير أوي..

كل الناس في المدرسة مفكرينه أخويا.. لما بيشوفوه واقف مستنيني قدام المدرسة كل يوم.. مرة كان الجو شتا وهو فضل واقف في المطرة ساعة الفسحة. ولما نزلت عند البوابة لقيته جايب علبة كشري واداها ليا كلها، قالي انه كان مع الأسطى في المركز وجابلي الكشري من هناك.. أنا بخاف على محمود أوي لما أشوفه واقف على السلم في الشغل.

حاسّة إني مش هشوفك تاني يا محمود.. أبويا مش عايز يخرجني تاني.. من ساعة اللي حصل.

***

لما أبويا ضربك عشان شافك ماشي معايا بعد المدرسة، عيطت كتير أوي والله، وزعلت كمان لما أمك جت عندنا زعلانة من أبويا،

وأبويا طردها وقالها: إبعدي إبنك عن بنتي.. متزعلش منى يا محمود.. أنا اللي زعلانة أوي إني محبوسة ومش عارفة أشوفك وألعب معاك.. بس أنا تعبانة أوي يا محمود.. وبموت.. اللي حصلي مينفعش أقولهولك!

بعد أمك ما مشيت أبويا ضربني جامد أوي، وحلف إني ما أروحش المدرسة تاني، أنا عارفة إنه بيكره المدرسة، بس قال كلام كتير أنا مفهمتوش.. قال إن الواد محمود ده مش هيجيبها لبر، أنا هربي البنت دي.. ونادي على أمي وإتكلم معاها، بصيت على أمي لقيتها بتعيط، قالتله: مش حرام يا مصطفي؟، قالها: ده شرع ربنا يا ست هانم.. مش عايز فضيحتي تبقى بجلاجل على آخر الزمن..

أمي دخلت عليا وهي بتعيط، قالتلي: أقلعي هدومك يا غالية، خفت لتضربني، بس أمي ما بتضربنيش، قلتلها: مش هقلع يا أما.. والله ما هعمل كده تاني، وهعمل كل اللي هو عايزه، أمي فضلت تعيط جامد، وسابتني وخرجت، سمعت أبويا بيزعقلها جامد، وبيشتمها وقالها إتصرفي، لولا العيبة هاخش أنا.. بعد شوية أمي دخلت عليا معاها خالتي إعتماد، خالتي إعتماد قالتلي: إقلعي يا حبيبتي هدومك، جريت على أمي وخدتني في حضنها، بس ما عملتش حاجة، وساعدت خالتي إعتماد، وقلعوني العباية، والبنطلون، خالتي إعتماد مسكت رجلي جامد، وفتحتها، وأمي في الأول كانت خايفة، بس في الآخر مسكت رجلي، خالتي إعتماد كانت بتبص على

رجلي من فوق، وحطت صباعها في مكان عيب، وقالت لأمي: بصي.. البنت صاغ سليم يا نعمة. قعدت أعيط جامد أوي وزعلت كمان من خالتي إعتماد، بس زعلت من أمي أكتر.

***

فضلت طول اليوم مخرجتش من أوضتي، وبالليل أبويا قال لأمي روحي نادي على أم سليم، أنا عارفة أم سليم، عنيها وحشة أوي، بخاف منها، وبعد شوية أم سليم دخلت عليا مع أمي، فضلت أصرخ، عشان شفت معاها سكينة صغيرة، وقالتلي: يا غالية لو إتحركتي هتتعوري وتموتي، أم سليم قلعتني البنطلون مع أمي، وفضلت تبصلي بعنيها جامد وأنا بصرخ، لما مدت إيديها بالسكينة الصغيرة تحت في نفس المكان اللي خالتي إعتماد بصت عليه، فضلت أعيط، وكرهت المكان ده أوي.. وزعلت من ربنا عشان خلاني كده..

أستغفر الله العظيم يا رب.. أغمى عليا لما شفت الدم. حسيت إني بموت، مكنتش عارفة أطلع نفسي.

أمي بعد شوية فوقتني وجابتلي أكل.. بس معرفتش آكل، لما شفت الأكل رجّعت، ريحة الدم كانت مخلياني قرفانة.

أنا كل يوم بحس إني قرفانة. وكمان بلاقي هدومي من تحت فيها دم، أمي قالت لأم سليم: البنت شكلها بتترف.. قالتها دي بتدلع.. هو أنا أول مرة أعمل كده.. ما أنتي عارفة يا نعمة تعالي شوف مراتك يا حاج مصطفي.. لما أبويا دخل أمي خافت وسكتت.....

6

أغلقت الكراسة، حين رن هاتفي، هرعت نحو الهاتف، عندما تذكرت أن تلك المكالمة بالتأكيد من أمي، أمسكت بالهاتف وأنا أمنّي النفس بأن تكون معي الآن، كي أرتمي في حضنها، وأبكي كما لم أبكِ من قبل، بالفعل أحتاج إليك يا أمي، ما حدث لتلك المسكينة زاد من أوجاعي، لعلك تساعدينني في نجدتها قبل فوات الأوان، أنا بالفعل ضعيف وهش.

ردت عليَّ بصوت منهك:

– إزيك يا علي؟

ما شعرت به في صوتها من إنهاك، جعلني مبالغًا في ادعائي بأني على ما يرام.. كلا لست على ما يرام يا أمي ابنك يجد فتاة تذبح ولن يستطيع فعل شيء، على كل حال، كان ردي البديهي الذي يرد به كل الناس في السراء والضراء:

– الحمد لله.. بخير.. المهم إنتي عاملة إيه؟

– أنا كويسة يا ابني.. المهم إنت كويس؟ إنت وحشتني أوي يا علي.

قالتها، ثم بكت، أصدرت من صوتها حشرجات أثارت قلقي، مما جعلني لا أستطيع أن أتمالك نفسي، فبكيت، وصرخت:

– أنا محتاجلك أوي يا أمي.

– مالك يا علي.. إنت مش كويس؟

– مش كويس يا أمي... مفيش حاجة في البلد دي كويسة.. أنا هاخد أجازة وأجيلك بكرة.

– أنا فعلا عايزة أشوفك أوي يا علي.

– أنا اللي محتاجلك أوي يا أمي.

– أنا فرحانة أوي إني هشوفك يا علي، قبل ما أموت.

– متقوليش كده يا أمي.. إنتي زي الفل.

أغلقت الهاتف، خفت على أمي كثيرًا، نبرة صوتها مؤلمة.. رباه..لا أستطيع فراقها، لم يبقَ لي أحد في الدنيا سواها، كل ما هو جميل في هذه الدولة، إما أن يقتله المرض أو يقتله الجهل.. حزمت حقائبي كلها، وكأني ذاهب بلا رجعة.

في الصباح ذهبت للمدرسة، طلبت إجازة قد تطول بعض الشيء، بالفعل لم أكن أعرف متى سأعاود للمدرسة، خرجت من المدرسة حاملًا حقائبي متجهًا صوب محطة القطار، لم يكن في الوقت متسع لأن

أستقل إحدي عربات النقل، التي ستأخذ وقتًا طويلًا في التحميل قبل أن تبرح مكانها.

جلست في القطار ممسكًا حقائبي، بين لحظة وأخرى أتحسس كراسة غالية، لكني لا أجرؤ على تصفح صفحاتها.. كفاني وجعًا. انطلق القطار داهسًا تحت عجلاته تلك القرى المليئة بالمئات كغالية ومحمود.

انتظريني يا أمي، بالله عليك لا تفعليها قبل أن أراك، كل الأفكار السيئة تحاوطني الآن، فراقك سيقتلني، رباه.. لماذا يرافقني كل هذا العذاب؟ أنا لا أطمح بأن أصلح مركبات الكون، كل ما أطلبه، أن يحيا الودعاء الطيبون حياة كريمة، هل غالية تستحق الموت؟ هل محمود يستحق لوعة الفراق، وآلامه؟ وأمي، هل تستحق أن ينهشها المرض اللعين؟، وأنا.. هل أستحق فراق كل هؤلاء وأحيا في هذا العفن؟ أستنشق غبار جهله، ورائحة مرضه.. أمي، أوصيك أن تتهملي لحين عودتي، أرتمي في حضنك تلك الليلة، لن أثقل عليك بما أحمله من أوجاع، يكفيكِ ما تحملين.

***

هرولت مغادرًا المحطة، آملًا في أن أراها، شعوري بأنها النهاية، كان مسيطرًا عليَّ للدرجة التي لا أستطيع معها طرد هذا الشعور.. حين وطأت قدمي أرض حارتي الضيقة، لم أشعر بتلك السكينة التي

كانت تلفني في السابق حين أعود إلى بيتي فور انتهائي من العمل. فما من أحد رأيته تبسم في جهي كما اعتادوا في السابق، الكل كان يتجنب النظر في عينيَّ.. فطنت أن أمر الله قد نفذ.. وتيقنت بأنها النهاية.

دخلت الشقة على يقين بأني لن أراها،، شممت رائحتها في كل ركن من أركان البيت، لم تحرمني من رائحتها بعد الرحيل.. أخذت أجوب كل الحجرات، أستنشق رائحتها في كل مكان،دخلت حجرتي وجدتها مهندمة كما عهدتها، كتبي وأوراقي القديمة في مكانها، الشيء الوحيد الذي وجدته في مكان غير مكانه..جواز سفري، بل إنني اندهشت حين رأيته موضوعًا على مكتبي،واضحًا جليًّا، بعد أن كانت تخفيه عني في السابق، حتى خيل إلى بأنها قد حرقته أو مزّقته. رؤيتي له في هذا الموضع، بعث إلى برسالة ترجمتها: أن أمي تخبرني بالطريق الذي يتوجب عليَّ سلوكه، وكأنها كانت على يقين أن بعد فراقها، لن أقدر على تحمل يوم واحد في هذا البلد. أصبتِ يا أمي،بالفعل أنا لا أستطيع.

أخذته، شممته، لم أجد فيه رائحة أمي، بالطبع لن أجد فيه رائحة أمي، فهي كانت تكرهه، بيد أنها حين وضعته هنا بيدها، كانت تضع حائلًا بينها وبينه!

أخذت صورتها المعلّقة على الحائط، وضعتها بجوار كراسة غالية في إحدي الحقائب.. حملت الحقائب وخرجت، لا أفكر إلى أي البلاد سأذهب، فكل البلاد تفي بالغرض، ما دامت غير متاخمة لهذا البلد!.



ولو وقتيًا



نَظرةٌ من عينيها تمحو آثار سنين الفراغ بدون عمل «ولو وقتيًّا».

اعتاد أن يتغلّب على واقعه السيئ بالتطلع إلى عينيها، وبنَيْلِ قُــبلة من شفتيها، وبقَــنْصِ ضَمّة لِخصرها.

التهامه لرقبتها، ثُمَّ دنوه من ثدييها، يُشعِره وكأنه ملك مُتوَّج على حطام!، تتهدَّج أنفاسه وتظلّ في حالة اضطراب ما دامت بين أحضانه.

هي لا تخذله أبدًا، دائمًا موجودة وتحت الطلب.. أكثر ما يُؤرِقه ويُحزِنه هي تلك اللحظة التي يشعر فيها بالفتور، فبعدها تتراكم الهموم على رأسه مجددًا وكأن شيئًا لم يكن.

ظلّت أنفاسه تتهدّج، والعَرَق يتساقط، ولسان حاله يقول: «عُدنا لمشاكلنا مجددًا».

***

لم يوقِظه من غفلته سوى صوت أخيه يأتيه من الخارج:

- كل ده في الحمام ولسة ما فتحتش الدش!

أخذ نفسًا عميقًا ومسح عرقه:

- دقايق وخارج.

طَوَى صورة النشوة الزائفة برفق، ووضعها في جيب بنطاله المُعلّق على شماعة خلف الباب، وبيَدٍ مُرتجفة أدار مقبض الدش وشرع في الاغتسال.

سِکس فون



في ميعاد محدد يأوي كُلٌّ إلى فراشه، تغلق جميع المصابيح، لا تصدر الأصوات إلا همسًا.. فهمسًا يتناجى اثنان أو ثلاثة، وهمسًا يرتل أحدهم القرآن، وهمسًا يدندن الآخر لحنًا رتيبًا.. وسرًّا أُخرج قلمًا وورقة رثة، وعلى ضوء المصباح الخلفي للقداحة، أشرع في كتابة ما يعنُّ لي من خواطر، كنت أظنها أشعارًا!

أداعب أحلام اليقظة، وأعد الأيام المتبقية لي في الجيش، فيلوح أمامي اليوم الذي ستنقضي فيه مدة خدمتي، وبعدها أعمل في أي مجال يقبل بي، أدخر نقوده كاملة، ألقيها في أي مكتب سفريات ينتشلني من هذا البلد والذهاب إلى غير رجعة.. كلها أحلام.

الرتابة التي تمر بها الليالي جعلتني أغفل بعض الشيء عن حسبان الأيام المتبقية لي هنا، وجعَلت جل تركيزي منصبًّا على أخذ تصريح الإجازة، والتفكير بعدها في العمل باليومية لأدفع إيجار الغرفة التي استأجرتها بعد تركي لقريتي، وبالباقي أشتري ما ينقصني من كتب، أنتهي منها جميعًا قبل العودة للمعسكر.. وهكذا دواليك.

خوفي من إطالة المدة في حبسي جراء قيامي بأية مخالفات، جعلني جنديًّا مطيعًا إلى أقصى حد، لا أذكر يومًا أنني تمردت على الأكل الرديء، ولا على المعاملة الخشنة التي نعامل بها من الضباط، ولا حتى اعترضت على السباب الذي يُكال لي ولزملائي ليل نهار. لكنني، كنت أصب جام غضبي واعتراضاتي على ما أنا فيه، على الوريقات التي أدون فيها ما يعنّ لي هنا، والتي يكون مصيرها في النهاية التمزيق لقطع صغيرة تذروها الرياح في فناء المعسكر. بيد أن إحدى تلك الوريقات قد وقعت عليها عين علاء زميل الوحدة، المستلقي على الفراش الذي يعلوني، مما جعله يبادر بالسؤال:

– لما إنت مش طايق الميري كده، جيت ليه؟

– جيت عشان أعرف أسافر.. لو معملتش كده ورقي هيبقى ناقص!

جذبني فضول ما تجاه علاء هذا، أعجبني فيه غموضه، كانت تضحكني همهماته سرًّا في الهاتف، لذا نُطلق عليه هنا (علاء الحبّبيب)، تقريبًا هو الوحيد الذي يملك هاتفًا في الوحدة، لذا تجد جميع الجنود يلجؤون إليه، إذا ما احتاج أحدهم التحدث في الهاتف.. نعم هاتف في الوحدة! في البداية سألت نفسي: "كيف يمر الهاتف على أفراد الأمن؟" لكن اتضح لي أنه أمر في غاية السهولة، هناك حالة من التواطؤ العام بين أفراد الوحدة، الكل هنا يعمل لمصلحة الكل، من

النادر أن تجد أحدًا من الأفراد يشي بزملائه لقائد الوحدة، فهو على يقين بأنه لو فعلها مرة، ستطاله الوشاية في المرة التي تليها.

علمت أن الجميع يدخل ومعه شريحته الخاصة، يضعها في هاتف من وصلت به الجسارة أن يُدخل هاتفه الصغير للوحدة.. ومن يكون هذا غير علاء الحبّيب! مع كثرة الأحاديث التي تجمعني به "همسًا"، توطدت علاقتنا، علمت أن غريزة الفضول التي جذبتني نحوه، هي ذاتها التي جذبته نحوي، حين سألني بخجل:

– أحمد.. إنت ليه عمرك ما طلبت مني تتكلم في التليفون زي الكل ما بيعمل؟

– علشان مليش حد أكلمه!

– إزاي بقى؟

– من غير إزاي.. أنا فعلا مليش حد.. أنا جيت من بلدنا أدرس في القاهرة.. أجرت أوضة وسكنت فيها لوحدي.

– معقول ملكش حد تزوره في البلد؟

– لأ.. بعد موت أمي مفضليش حد.

– أنا كمان يتيم الأم.. لكن عايش مع أبويا.. وشي في وشه لحد ما حد فينا يتجوز ويفارق التاني!

اندهشت لما رأيته عليه من بساطة في تحليل واقعه، رأيته غير متذمر ولا ناقم مثلي على أوضاعه المزرية.. نعم، هو أفضل حالًا مني

بعض الشيء، لكنه لا يستطيع تحقيق ما يحلم به أو بالأحرى أخذ حقه في الحياة بأن يتزوج.. بيد أن حرمانه من الزواج، هو ما جعله يقضي الليل كله في التحدث لفتيات في أمور أظنها تافهة وغير مثمرة، ما دامت لا تسفر في النهاية لعلاقة طبيعية ملموسة، كان يعترض على وجهة نظري تلك، كنت أداعبه قائلًا:

- إنت بتفكرني بفيلم ثقافي، لما كان أقصى طموحهم يتفرجوا على شريط فيديو.

ضحك ساخرًا ثم قال:

- الأفلام دي بتعبر عن الواقع يا عمنا.

- واقع ابن ستين كلب.. بكرة أسافر ومفكرش في الحاجات دي.

- أنا غيرك يا أحمد.. الظاهر أنا اتعودت ع السجن ده.

- طب وطّي صوتك بقى ونام.. تصبح على خير.

- وإنت من أهله.

امتنع القدر عن توفيق إجازتنا في يوم واحد، مما جعلني في حالة من الاشتياق إليه كلما يأتي دوره في الإجازة، كنت أفرح بعودته وكأني أعرفه منذ الصغر، لم يعد لي سواه في هذا البلد، شخص بسيط،

يشبهني، من نفس مستواي الاجتماعي تقريبًا، بيننا اختلافات بالتأكيد، لكنها لم تكن يومًا عقبة أمام صداقتنا.

يعود من الإجازة محملًا بالطعام، والنهم الجنسي، كنت أداعبه قائلًا: كلاهما جوع، لم تكن تغضبه مداعباتي المبطنة بالرثاء لحاله، بل كان يسايرني في المداعبة، فنضحك حتى تدمع أعيننا. كنا نقضي الليالي في الاستماع لحكاياته العاطفية عبر الهاتف، بالطبع كان يبالغ بعض الشيء، لكني كنت متفهمًا لذلك، حتى محادثته الأخيرة مع المرأة الأربعينية، كنت أراها غير حقيقية، لكنه أصر أن أستمع لصوتها كي أصدقه، بعض إصرار منه وافقت. وجدتها كما أخبرني منحدرة من طبقة راقية، لكني كنت في حيرة من أمري: كيف لامرأة في هذه السن وهذا المستوى الاجتماعي أن تتصرف كالمراهقات، مع شاب من عمر أولادها؟!

أخبرني بأنه يتمنى أن يأتي اليوم الذي يلقاها فيه وجهًا لوجه، علّه ينعم معها بممارسة فعلية للجنس، التي ستكون ألذ وأطيب مما يحدث عبر الهاتف، كنت أضحك من كلامه هذا، فكان يخبرني بأني شخص غير طبيعي، فكيف لشاب في سنّي أن يحيا دون رغبة في الجنس، كنت أجيبه بأنني وصلت للدرجة التي تعطلت فيها كل غرائزي حتى صرت مسخًا، غير أنه فاجأني ذات يوم قائلًا:

– اللي متعرفوش بقى إن الست دي معاها الجنسية الأمريكية.

- وإيه اللي يجبرها على اللي بتعمله معاك ده؟ الناس دي بالتأكيد عندها المواضيع دي عادي.

- مش عارف يا عم، وانا أشغل دماغى ليه هو أنا هتجوزها؟! بقولك إيه.. أنا ممكن أظبط معاها عشان أخليها تسفرك.. إنت مش بتحلم بالموضوع ده؟

لم أتمالك نفسي من الضحك، لكنه فاجأني بقوله:

- سيبها على الله، ثم على علاء.

لا أنكر أن حديثه أثار فضولي، وشغل تفكيرى بعض الشيء، فكلمة "السفر" لها وقع السحر على أذني، حتى وإن وردت على سبيل المزاح، لكن نبرة علاء لم تكن تمتُّ للمزاح بصلة، فقد كان جادًّا في حديثه معي، فأنا أعلمه جيدًا.. يا له من شخص غريب بالفعل!

فاجأني ذات ليلة بأنه أخبرها عني، وأنها مستعدة لمساعدتي، لكنها ترغب في التحدث إليّ، لا أعرف ما الذي دفعني للموافقة، والخوض في تلك التجربة الغريبة من نوعها، وهل لي أن أتحدث معها كما يتحدث علاء، أو بالأحرى أفعل ما يفعله من ممارسة المتعة الصوتية!

ظل علاء يمهد لي الأمر طوال مدة وقوفنا في الخدمة، إلى أن أتت الساعة التي يحل فيها الظلام على المعسكر،وتبدأ المهمات،

ووصلات التراتيل والمناجاة، وبالطبع مكالمات علاء التي لا تنقطع.. تحدث معها لبضع دقائق،وبعدها ناداني هامسًا،مد يده إليّ بالهاتف..مترددًا أخذته منه،وضعته على أذني، سمعت من تقول بصوت عذب:

- آلو.

- آلو.. مساء الخير.

- إزيك يا أحمد.

- الحمد لله.. حضرتك عاملة إيه؟

- إيه حضرتك دي يا أحمد؟! إحنا مش بقينا أصحاب ولا إيه؟

- إن شاء الله.

- مالك يا أحمد؟ فك كده، إنت أول مرة تكلم ستات ولا إيه؟

- تقريبًا آه.

"ضاحكة":

- حلوة أوي تقريبًا دي.. المهم.. عاوز تسافر ليه يا أحمد؟

- عشان مش عارف أحقق أي حاجة هنا.

- وإنت حاولت تعمل أي حاجة هنا ومنفعتش فلجأت للسفر؟

عشت عمري كله لم أسأل نفسي هذا السؤال، هل سبرت تلك المرأة غوري لهذا الحد، من أين أتتها تلك الجسارة وتسألني هذا السؤال بتلك الأريحية دون أن أشعر برجفة في صوتها؟ قلت لنفسي: هكذا تكون الحياة في الغرب يجعلونك مثلهم تسأل ما يعن لك من أسئلة دونما تفكير في عاقبة ما تقول.. لكن، لماذا أرى فيما قالته تجاوزًا؟ أي تجاوز في هذا؟ أم أن ما قالته أعادني إلى ما أخشى التفكير فيه، ومن ثم انتابتني تلك الرجفة، وغمرني ذاك العرق، على كلٍّ، لم أجد ما أرد به سوى مبرري الذي أحتال به على الجميع، حتى على نفسي:

– مش عايز أنجح أو أفشل لوحدي.. أنا مليش حد هنا.. عشان كده عايز حياتي تبدأ برة، ويمكن أنهيها برة كمان.

– أحمد.. إنت عشت قصة حب فاشلة أيام دراستك مثلا؟

– لأ محصلش عمري ما قربت من بنت.. أنا بخاف من الفراق.. وعارف إن أي علاقة نهايتها فراق.

– الكلام في التليفون مش هينفع.. أنا عاوزة أقابلك، وأتكلم معاك

– مش هينفع.. أصلي بطول هنا في الخدمة.. ولسة بدري على أجازتي؟

- هستناك يا أحمد.. قولي رقمك، وأنا هكلمك.

أعطيتها الرقم، على وعد بأن تحادثني في أول إجازة. كانت تسوقني إليها، لم أكن أدرى بنفسي وأنا أُساق إليها بهذا الشكل المريب الذي لم أعتده مع أحد من قبل، لا أعرف ما الذي يشدني بهذه الطريقة، الدلال الذي كانت تتصنعه معي أثناء محادثاتنا لم يُثرني قيد أنملة، لكن بين اللحظة والأخرى كانت تلوح بالباسبور الأجنبي الذي تملكه، واستعدادها في أن تملكني أنا الآخر باسبورًا مثله، بيد أن هذا كان السبب في انجذابي؟! ربما!

لاحظ علاء تغيرًا ما، قد طرأ على تصرفاتي بعدما حادثتها مرة بعد أخرى، كان يضحك بمكر أظنه له علاقة بما قد تبادر إلى ذهنه عن فحوى مكالماتنا، شعرت بأنه يتوجب على إيضاح الأمر له،وأنني لست ممن تثيرهم الأصوات عبر الهاتف، وأؤكد ما قلته له من قبل، وهو أنني تقريبًا تلك الغريزة قد توقفت لدي، أو بالأحرى لم تعُد موجودة بسبب إهمالها الدائم، والانشغال عنها بأمور شتى، أهمها الحالة المزرية التي كنت وما زلت عليها.

في كل مرة كانت تحادثني فيها، كنت أشعر بأنها على وشك اتهامي بالتبلد، فقد كانت تتعمد إثارتي بشتى الطرق، كنت أشعر بهذا، لكني كنت مأخوذًا بفكرة السفر.. تحدثني عن أي منطقة تثيرني أكثر في المرأة، كنت أجيبها بسؤال عن كيفية استخراج جواز السفر، في اللحظة التي كانت تسمعني فيها تنهّداتها، الحقيقية أو المزيفة لا

أعرف، كنت أفكر في تنهداتي التي ستخرج فرِحة من رئتيَّ عقب خروجي من هذا البلد.. باختصار كانت في وادٍ وكنتُ في واد آخر.

مرّت الأيام على ثلاثتنا.. علاء تتهدج أنفاسه ليلا معها، وهي تثيرني رغمًا عني، وأنا أعد الأيام في انتظار لحظة الخلاص والأمل الذي لاح من خلالها..

حتى جاء أول يوم إجازة، هرولت نحو غرفتي، شحنت هاتفي ببضعة نقود، حادثتها لأخبرها بخروجي، وسألتها عن إمكانية لقياها، إجاباتها لم تُرحني، تهربها الواضح من صوتها جعلني أشك في الموضوع برمته، حاولت التمسك بالصبر، لم اكن ملهوفا للقياها بغرض المتعة، بل هي التي كانت تخبرني في كل ليلة بأنها تتلهف للنوم بين أحضاني، أما أنا، فقد كنت مشغولًا بجواز السفر الذي وعدتني بأن تملكني إياه. فكرت في الذهاب إلى المكان الذي أخبرتني بأنها تسكن فيه، لكني تراجعت حين تذكرت أنها لم تعطني العنوان بالتفصيل، وهل سأذهب إلى الزمالك أبحث عن امرأة لم أرها من قبل؟! ما هذا العبث؟!

اتصلت بعلاء، علّني أظفر منه بما يفيدني، لكني وجدت هاتفه مغلقًا، دعوت الله بالستر لكلينا، اتصلت بها مرارًا، وبعد إلحاح مني، طلبت مني الذهاب إلى وسط البلد وانتظارها هناك، ذهبت ممنيًا النفس بأن تكون لا تزال على موقفها من موضوع سفري.. وصلت قبل موعدي بنصف ساعة تقريبًا، وقفت بجوار الجامعة الأمريكية،

وبعد ساعة هاتفتني، تخبرني بأنها الآن في التحرير وتسألني عن مكاني تحديدًا، أخبرتها، وبعد دقيقتين وجدتها أمامي، صافحتني بترحاب بالغ، مشينا معًا في اتجاه محمد محمود، عرجت نحو كافيه كوستا، ترددت لبرهة، لم يكن معي من النقود ما يكفي، جذبتني من يدي، هامسة في أذني:

- ما تخافش أنا اللي هحاسب.

حين دخلنا، شعرت بنظرات الاستنكار تحيطنا من كل حدب وصوب، حتى النادل حين جاء ليسألنا عما نريده من شراب، لم نسلم منه. نظراته إليّ كانت مليئة بالكثير من الأسئلة التي أعلمها جيدًا.. تُرى ما الذي يُجبر شابًّا مثلي على الدخول في علاقة مع امرأة في عمر أمه تقريبًا، لمحت في عينيه سؤالًا.. ترى من الذي يخدع الآخر؟ هل هي التي تخدعني طمعًا في شبابي، أم أنا الذي أخدعها طمعًا في مالها؟ أحدنا بالتأكيد طامع في الآخر.

جذبتني من شرودي، حين قالت:

- طلبتلك قهوة معايا، عشان شكلك مرهق ومحتاج تركيز.

- متشكر.. كلمتك كتير وكنتي رافضة تقابليني.

- آسفة.. كنت بمر بظروف صعبة شوية.

- خير؟

- كان عندي حاجة كده تقدر تقول إكتئاب.

- من إيه؟ مظنش إنك محتاجة لحاجة!

- مين قال كده؟! أنا محتاجة لأهم حاجة.

شردت برهة من الوقت، سألت نفسي: ما الذي تحتاجه امرأة في مثل حالتك الاجتماعية؟ قلت لنفسي: لعلها تحتاج إلى ما تفعله معي وعلاء هاتفيًّا، لكن ما الذي يمنعها من فعله عمليًّا، جذبتني من شرودي حين قالت:

- آه، هو اللي إنت فكرت فيه.

- ممكن أسألك سؤال؟

- إتفضل.

- اللي أعرفه إن اللي بيعمله علاء معاكي.. وأنا طبعًا، ده إحنا مضطرين ليه عشان ظروفنا، لكن إنتي..

قالت ما لم أستطع قوله:

- قصدك إني المفروض أعمل كده عادي، ومحدش ليه حاجة عندي.. مش كده؟

- بالظبط كده.

– مش بالسهولة اللي إنت متخيلها.. إحنا في مجتمع شرقي.. ده غير إنه دينيًّا مرفوض. واللي بعمله معاك ومع علاء ده، كنت في الأول بقنع نفسي بمبررات عبيطة.. من نوعية إن الموضوع مفيهوش تواصل جسدي، وإني بكده بساعد حد محروم زيي، لكن لما عرفتك وقربت منك أوي حسيت إنك مش في دماغك الحاجات دي، كنت مستغرباك أوي، لكن بعد فترة حسيت بمهانة اللي بعمله.. وده وصّلني لمرحلة عالية من الإكتئاب، لدرجة إني روحت لدكتور نفسي.

المرارة التي كانت تتحدث بها، زادت من أوجاعي، لدرجة أني التمست لها العذر فيما تفعله، كدت أسألها عن الشيء الذي جئت أو بالأحرى عرفتها من أجله، إلا أنها فاجئتني قائلة:

– عارفة إنك جاي تتكلم عن موضوع السفر، وإنك رضيت تتعرف عليَّ من الأساس عشان الموضوع ده.

حاولت التهرب من الإجابة، بأن أقول لها: إنني أعتبرها صديقة، وما إلى ذلك من أكاذيب، لكني لذت بالصمت، طمعًا في أن تريحني.. أخرجَت سيجارة، وأشعلتها، زفرت دخانًا مرتعشًا يشبه الشفتين اللتين خرج من خلالهما. ثم قالت:

– أنا آسفة يا أحمد.. إنت شاب طيب.. لكن لازم أعترفلك إن حكاية الجنسية الأمريكية اللي معايا دي الحجة اللي بقولها لما بكلم

أي شاب في أمور زى دي، تقدر تقول بطمّعه. أنا ست عادية جدًا.. مستني إيه من واحدة أرملة من عشر سنين ووحيدة!

زمت شفتيها، ثم قالت:

- جيلكم تعبان أوي يا أحمد.. حاجة تصعب على الكافر.. نصيحتي ليك إسعى في موضوع السفر ده.. وآسفة إني خدعتك وبلغ علاء أسفي.

لم أجد بدًّا من استكمال هذا الحوار الذي أطاح بحلمي الوحيد، قمت من مكاني أشبه بالثمِل، تحاملت على نفسي، حتى استجمعت بعضا من قواي الخائرة، انصرفتُ حتى دون أن أنبس بحرف واحد، سرتُ في الطريق أنظر هائمًا في وجوه المارة، لمحت في أعينهم نفس الانكسار الذي أراه في عينيٍّ علاء، هو ذاته الانكسار الذي لمحته في عين تلك المرأة التي داعبت حلمي ليالِ طويلة.. فكرت في علاء وما سأقوله له عن تلك المرأة، هل أخبره بالحقيقة، أم أكنها في نفسي علّها تعلمني شيئًا؟

عدت إلى غرفتي، لم أجد بدًّا من استكمال الأجازة، شرعت في جمع أغراضى والذهاب للمعسكر، لم يعد لي سواه الآن، حتى أنى تمنيت لو طالت مدة خدمتي، خوفًا من رؤية هؤلاء البشر الذين يكسوهم الحزن.. وهل هناك ثمة فارق بين الشارع والمعسكر كلاهما سجن كما يقول علاء.

وقفت أمام بوابة الدخول، باغتني جندي يعرفني من أفراد الأمن قائلًا:

- إنت يا بني مش أجازتك لسة مخلصتش؟ انت مجنون؟!

- مبقتش فارقة.

بعد إتمام إجراءات إنقطاعي عن الإجازة، والنظرات وأسئلة الاستغراب التي انهالت عليَّ من الضباط، دخلت إلى مكاني حيث وجدت علاء مستلقيًا على فراشه، وجهه شاحبًا، سألته عما أصابه، أجابني ساخرًا.. بأنها نوبة برد جراء كثرة الاستحمام.. أضحكتني إجابته التي أفهم مغزاها جيدًا، وأكملت ضحك على حالنا المزري..



نور

كان صوته مُجلجلًا وهو يصيح بأعلى صوته:

- نوورا!

ترُدّ عليه بصوت رقيق:- حاضر يا بابا.

يشيح في وجهها بيده وبصوت أجَشّ:

- مش قُلت مليون مرّة بلاش بابا دي!

ترد في وَهَن:

- آسفة.

تعوّدَت نور على تلك الطريقة من أبيها، الرجل المُتشدِّد إلى أقصى حدّ.. فور إتمامها لعامها الثاني عشر، فَرَض عليها النقاب، حتى صار جُزءًا لا يتجزأ من حياتها المليئة بالتحكُّمات والأوامر، إلى أن صارت الآن في الحادية والعشرين من عُمرها، بكل ما تحمله هذه السِن من نضوج فكري وجسدي وخلافه!

كان هذا النقاب يُمثّل حائلًا بينها وبين الحياة التي تبتغيها.. كثيرًا ما كانت ترى هذا «الساتر» كشخص مُنعَت عنه نور الشمس.. كثيرًا ما كانت تتمنّى الخروج ليلًا تتخلّل نسمات الهواء جنبات شعرها المسترسلة على كتفيها.. تمنّت لو أن يجيء يوم وتَسير حافية على الرمال، فتشعر بلَسْعَة الشمس بين ذَرّات الرمل، وتمنّت، وتمنّت، وتمنّت، هي أحلام بسيطة، ولكن، أنّى تتحقق ما دام هذا السور العالي الذي حلمت بأن تتخطّاه يومًا ما موجودًا؟!

إلى أن يأتي المساء حتى تدخل حجرها، وتُوصِد الباب من خلفها بإحكام، تقف أمام المرآة، تنظر لنفسِها جيدًا، حتى أنّها راودها شكٌّ أنها لا تعرف تفاصيل وجهها وجسدها! شرعت في نزع ما يكسوها قطعة تلو الأخرى، حتى تعرّت تمامًا، فبدت كشُعاع نور أضاء أرجاء الحجرة، نظرت إلى جسدها في المرآة بإمعان، أغلقت عينيها، لتسبح في عالم من الخيال، فتهادت إلى مسامعها موسيقى أشعلت الحُرّية بجسدها، فانطلقت في الرقص.. عاشت لدقائق الحُرّية التي تنشدها، لم يوقظها من حلمها سوى صوت أبيها يأتيها من خارج الحجرة:

– إنتي نمتي يا نور؟

أطفأت نور الحجرة، وتدثّرَت بلحافها، وشرعت في النوم!

ع الهامش



(الإثنين 24 يناير 2011)

كان جالسًا على المقهى كعادته، منتظرًا عودتها من الجامعة، فحياته تتمحور حولها «أو بالأحرى حول جسدها»، والمسامرة على المقهى، وأفلام البورنو.

أشعل خمس سجائر، وتناول كوبين من الشاي، وحجرَ معسّلٍ على النوتة، وتفحّص كل أنثى مَرّت من أمامه، لم يدَع جسدًا أنثويًّا إلا وقد اخترقته عيناه، عرّته، ضاجعَته!

أما هي.. فلها وضع خاص، هي التي تحدد النقطة الفاصلة بين الحيوان والإنسان اللذين يتصارعان بداخله، لا يعرف إن كان يُحبها حقًا، أم أنه مفتون بجسدها فقط، أم يجذبه تجاهها قوتها.. تلك القوة التي تزود بها عن نفسها.

نفض عن رأسه كل تلك الأسئلة المُهلِكة لخلايا المخ، وراقب بحذر مدخل الشارع الذي يعلم علم اليقين أنها ستأتي منه في هذا الموعد.. أتت بالفعل مُرتدية البلوزة البنيّة الداكنة والبنطال الجينز، ذاك الزّيُّ

الذي ارتدته الأسبوع الماضي، فهو يحفظ عن ظهر قلب كل ملابسها، بل من الممكن أن يُحصيها!

هَبَّ واقفًا، تاركًا الكرسي، تشاغل باللعب في الموبايل، حتى مرّت من أمام المقهى، مُتجهة صوب بيتها، تتحدث في الموبايل، تركها تَمُرّ بضع خطوات، سار وراءها يلهَث كجرو جائع وخائف.. لم يُبدِ اهتمامًا لما قالته أثناء حديثها في الموبايل، فباله كان منشغلًا في انحناءات الجسد وبروزه، ورائحة العطر، لم تعبر إلى مسامعه أي كلمات سوى عبارات متناثرة.. "كلميني على الموبايل بكرة أول ما تصحي.. لو عرفت أكلمك شوية ع الميل هكلمك..

سلام".

دخلَت من باب العمارة دونما اكتراث بحاله، تركته يلتهم شفّته السفلى ويعود كما كان.

***

(الثلاثاء 25 يناير 2011)

خرجَت من باب العمارة، لم تكن تحمل أيّ كتب كما اعتاد أن يراها.. اندهش قليلًا عندما تذكّر بأن اليوم عُطلة رسمية، لأن والده إجازة – وقاعد في البيت كابس على نفسه.. تساءل بغيظ مكتوم:

– رايحة فين بنت الق... دي في يوم زي ده؟!.. يعني مفيش جامعة ولا دياوله.. ورحمة أمي لازم أعرف رايحة فين.. ورَاكي. مرقت من

شارع جانبي، مُتجهة صوب شارع شبرا، استقلّت أتوبيس 833 الذاهب لميدان الجيزة، صعدت من الباب الأمامي، وصعد هو من الباب الخلفي.. نزلت في ميدان عبد المنعم رياض، ونزل هو من نفس الباب الذي صعد منه.. سار خلفها بخُطًى متثاقلة.. وقفت تُصافح أصدقاء لها بنين وبنات، حاملين لافتات عريضة مكتوب عليها: عيش، حُريّة، عدالة اجتماعية، كرامة إنسانية.. هَزّ رأسه ساخرًا.. "مالكم انتم ومال العيش والعدالة الاجتماعية دي!.. يا عالم يا ولاد الجزمة.. سيبوا الكلام ده للغلابة اللي زيّنا". لّما لم يُعجبه الوضع، تذكّر ميعاد جلسة الأُنس مع «سعيد الفَك»، سار نحو الكورنيش في انتظار أي شيء يُقلّه إلى المنطقة من حيث أتى. اتصل على سعيد مرارًا، وجد هاتفه مغلقًا.. حتى أنت بقيت مهم يا ابن الهايفه!.. ذهب إلى البيت مُمَنّيًا النفس بأن يجد أباه قد ترك المترل لبعض الوقت، فيجلس مُنفردًا يعبث بالريموت علّه يجد ما يُداعب شهوته.فوجئ بجميع القنوات تتحدث عن ميدان التحرير الذي تركه من ساعات قليلة، وعن المظاهرة المشتعلة به وبميادين أخرى.. دين أم ميدان التحرير اللي حارمنا برّه وجوّه. مرّ يوم، والثاني، والحال كما هو عليه، فلا هو رآها، ولا هو التقى «سعيد الفك» المُختفي من أسبوع.. لا شيء سوى المُظاهرات.. لا شيء سوى التحرير. بدأ يتأقلم على الوضع الجديد، فالبلد كلها تتابع ما يجرى، لدرجة أن والده يطلب منه كل يوم، بل كل ساعة: "شوفلنا ياض يا علي إيه اللي بيجرى في البلد"..

فيجلس معه ويشاهدان المجريات، ويعلّقان تعليقات لا تخلو من سُباب للمتظاهرين. في أحد البرامج الحوارية، كان الضيف ممثلًا من النوع اللزِج، ظلّ يُلقي الاتهامات جُزافًا على المتظاهرين، من أول تلقّيهم لتمويلات أجنبية، إلى قيامهم بممارسة الرذيلة في الخِيام. بيدَ أن تلك التُهم، وخاصةً الأخيرة، ألهبت النار في جسده.."أنا قُلت كده برضه.. العيال دي أكيد مقضيينها!".. أخذته قدماه إلى هناك.. إلى ميدان التحرير.

***

(الجمعة 28 يناير 2011)

وقف أمام إحدى المنصّات الجانبية بجانب المُتحف المصري، يسمع ما يُقال على المنصّة.. في البداية لم يُبدِ اهتمامًا لما قيل، لأنه لا يُعبِّر عنه! يتململ حينًا، ويستمع ساخرًا تارة أخرى، وشيئًا فشيئًا لمست الأغاني والهتافات الهادرة الإنسان الذي بداخله..الإنسان الذي هرسته رَحى الفقر والجهل، لكنه ما زال ينبض بداخله.. لم تقتله جلسات «سعيد الفك»، ولا الخيالات المريضة، والحرمان، والكبت، دوّخته الأسئلة التي تدور في رأسه: ما الفرق بيني وبين هؤلاء؟! نعم، هذا الشاب وتلك الفتاة يبدو عليهما الترف، أما هذا الرجل يشبه أبي، وتلك السيدة تشبه أمي.. أمي!.. هل لا زلت أذكر أمي؟! نعم، فهي محفورة بداخلي.."خذ الثانوية يا علي يمكن ربنا يكرمك

بوظيفة.. إنتي طيبة أوي يا أما، هو فيه حد دلوقتي بيتوظّف!" الدوّار الذي أصاب رأسه من ثقل التفكير في ماضيه وحاضره، جعله لا يسمع النداء الذي قيل على المنصّة، بالذهاب نحو كوبري قصر النيل لدعم الموجودين هناك، فالشرطة تضرب بعنف.. «هو أنتم رايحين فين يا أستاذ؟» هكذا سأل الشخص الثلاثيني الواقف بجواره.

– رايحين نساند إخواتنا اللي على كوبري قصر النيل.

– مش خايف؟!

– هخاف من إيه!.. أو تقدر تقول هخاف على إيه! ما احنا ميّتين أهو.

– بس حضرتك شكلك يعني متعلّم وكده! يعني أكيد شغّال شُغلانة محترمة.

– متهيألك.. أنا فعلًا معايا ليسانس آداب فلسفة، لكني شغّال في شركة أمن!

– اسم الكريم إيه؟

– هشام.

– أخوك علي. قَطع حديثهما الصوت الآتي من خلفهما، بالقرب من المنصة، صوت أنثوي يُقسِم بأغلظ الأيمان أنها ستذهب معهم نحو الكوبري، وشاب بصوت مبحوح من أثر الهتاف:

– اعقلي يا مروة.. وخليكي هنا مع البنات.

– لو بتحبني خليني أروح.. ولّا خليني ليه، أنا رايحة غصب عن أي حد.. اللي بيحبني بقى هو اللي ييجي معايا! في تلك اللحظة كان واقفًا بالقرب من الصوت الذي يحفظه عن ظهر قلب، صوت الأنثى التي أعيته.. بداخله يقين أنها ستفعلها وتذهب، فهو أعلم الناس بقوتها الكامنة، تلك القوة التي تزود بها عن نفسها في المنطقة، وتحمي نفسها من الطامعين. وحدث ما توقعه.. لَمَحَ الفرحة في عينيها.. لا يُنكر أن ما فعلته من إصرار للذهاب للخطر، أو حتفها، قد هزّه، بل زلزل كيانه. اندمج بمعنى كلمة اندمج.. هربت من ثغره ابتسامة حين تذكّر أمه قائلة له: "تعرف فلان.. آه.. عاشِرته.. لأ.. يبقى متعرفوش!" تدَافَع الشباب نحو الكوبري، كان العدد الداخل ليس بالكثير الذي يمنعه من رؤيتها ومَن معها من الشباب.. ظلّ بجانب «هشام»، الذي تجاذب معه أطراف الحديث، أطربه كلامه كثيرًا، بل شعر بأنه مثله، وإن كان ما يُميّزه عنه فقط المستوى التعليمي. حدث ما أخبره به «هشام» تقريبًا بالنَصّ. في البدء كان رشّ المياه، وبعدها القنابل المسيلة للدموع، تطوّر الأمر إلى الضرب بالرصاص، تفرَّق الجميع، وظلّ هو مُمسِكًا بيد «هشام» أينما ذهب، أوقات عصيبة من الكَرّ والفَرّ، أنباء عن سقوط شباب. أخرج ما في جُعبته من شتائم، سَبَّ الشرطة، حتى حسني مبارك لم يسلم من لسانه.

«مروووووة».. تلك الصرخة المدوّية التي زفر بها الشاب الذي كان يتشاجر معها من دقائق، هروَل «علي» نحو الصوت، وجدها مُسجاة على الأرض، والشاب يحتضن رأسها المنفجر بفعل رصاصة قد اخترقتها. ماتت.. لن يُجدي معها أي عمل طبي.

- لازم نوديها على بيتها.

نطق بها «هشام»، مُوجِّهًا حديثه للشاب الجالس يبكي وهي في حضنه.. ثم مُوجِّهًا حديثه نحو علي:

- شيل معانا يا علي. سقطت تلك الجُملة كالصاعقة على رأسه.. "أنا أشيلها؟!.. أنا ألمس جسمها؟!.. ده أنا!.. ده أنا إيه؟!.. أنا كلب ولا أسوى.. هي أشرف من إن واحد وسِخ زيي يلمسها، حتى لو بنِيّة دفنها". هرول مُسرعًا ناحية كوبري أكتوبر.. لا يدري إن كانت قدماه تسوقانه نحو البيت، أم نحو حتفه!



وَنَس



بعد أن تأكدَت أن كل من في المترل قد أوي إلى فراشه، تسلّلت إلى حجرها، أوصدت الباب من خلفها، أطفأت نور الحجرة، تحسست بيدها مؤخرة السرير حتى وجدت ضالتها، فانسلّت في داخله بهدوء، حملقت في السقف لمدة، وبصوت هامس

- عارفة إنك حاسس إني محتجالك دلوقت.

-........

مرّت دقيقة، والثانية، والثالثة..«الدقيقة في هذه اللحظات تشبه دهرًا بأكمله»

- لو بتحبني فعلًا اظهرلي، أو اعمل اللي يدل إنك موجود! سَرَت قشعريرة بجسدها، تلك القشعريرة التي لم تكن تشعر بها إلا في لحظات العناق التي تجمعها به.. هنا انتابها شعور بأنه معها، بل ويحتضنها، لكن ما تشعر به الآن لا يروي عطشًا ولا يُغني من جوع!.

- أنا متأكدة إنك معايا، بس نِفسي أسمع صوتك.. أصله وحشني جدًا.

-..........

- إنت عمرك ما أخّرتلي طلب.

-......

- حبيبي، إنت ما تعرفش إيه اللي حصل من بعد ما سبتني. بدأ صوتها يختنق بفعل الدموع المُنهمرة تباعًا.

- كل حاجة حلمنا بيها سوا مفيش حاجة منها اتحققت.. عارف أصلًا بيقولوا عليك إنت واللي زيك إيه دلوقت!. كفكفت دموعها، وشرعت في تغيير النبرة المؤلمة في كلماتها، لأنها أحسّت بأنها تُثقل عليه بحديثها هذا، فهي كانت دائمًا تتحسّس كلماتها معه خوفًا على مشاعره المُرهفة، أو كما كانت تُخبر صديقاتها بأنها «مخطوبة لملاك»!

- بلاش نتكلم في اللي حصل من بعد ما سبتني.. فاكر يوم جمعة الغضب، لما مسكت إيدي جامد وقولتلي: واضح يا حبيبتي إن البلد دي اتغيّرت خلاص والراجل ده هيغور هيغور.

- فاكر؟ إنت مبتردش عليا ليه؟! عادت دموعها ثانية:

- مش مهم.. طيب فاكر لما الغاز كان مالي الميدان، قمت إنت حطيت راسي على صدرك وغطيتني بالجاكيت بتاعك.

- رُد عليَّ أرجوك! علا صوتها بطريقة هستيرية، وعليه هرولت أمها نحو حجرتها محتضنة إياها.. ربتت على كتفها وواستها بكلمات حفظتها من كثرة التكرار

– «إهدي يا بنتي».. «استعيذي بالله».. «ربنا يرحمه».. «هو أكيد في مكان أحسن».

– مبيردش عليَّ يا ماما!

– لا إله إلا الله.

هدَّأت من روعها بكلمات المواساة المعتادة وبعض الآيات القرآنية حتى خلدت إلى النوم، وفي اليوم التالي، فعلت ما فعلته في ليلة أمس علّها تجد ما يُؤنِس وَحشتها.

حالةُ مَلَل

يبدو أن الملل الذي يعتريها، وبطء الحياة من حولها، سببه عدم وجود أُناس بجانبها.. فهي تقطن بمفردها في شقة بإحدى البنايات، ليست لها أي صلة بأحد من جيرانها، ولكنها في اللقاءات العابرة على باب العمارة أو بداخلها، أحيانًا، تبتسم في وجه هذا وتلقي السلام على تلك، ومع ذلك لم تعمِّق الصلة مع أحد قط. الأيام تمر ببطء.. يوميًّا تفعل ما هي مُعتادة على فعله، تستيقظ من نومها مبكرًا تستقل أتوبيس الثامنة متجهة لعملها، وتعاود إلى شقتها في الثالثة ظُهرًا، لا شيء يتغير.. لا شيء جديد.. لا شيء سوى اللا شيء. باستثناء ذلك اليوم غير العادي، الذي ألقى بداخلها ثمّة أمل وثمّة تجديد..ففي ذلك اليوم، استيقظت مبكرًا كعادتها، انتابها إحساس بالخمول للحظات، قاومته سريعًا، اتجهت صوب الحمام، وقفت تحت (الدش) بتململ، وما إن انتهت حتى دبّ فيها النشاط الذي تستجلبه رغمًا عنه وعنها، غسلت أسنانها وصففت شعرها، داخل حجرتها نظرت إلى وجهها في المرأة مليًّا. «المرآة مكتوب عليها: ابتسم، هذا يوم سعيد». بادرت

بمحوها وبداخلها صوت يقول: «إن هذا اليوم السعيد الذي طالما انتظرته لم ولن يأتِ». وضعت مفاتيح الشقة داخل حقيبتها، وغادرت الشقة مُسرِعة نحو المحطة، وما إن وطأت قدماها أرض المحطة حتى وجدت الباص مُزدحمًا وعلى وشك التحرك، صعدت درج الباص ولم تجد أيًّا من المقاعد شاغرًا. وقفت بجوار أحد المقاعد مُمسكة به، نظرًا لِقصر قامتها الذي لا يُمكّنها من الإمساك باليد البلاستيكية بأعلى الباص، وما إن لمحها الشاب الجالس على المقعد التي هي بجواره حتى هَمَّ بالقيام، عارضًا عليها أن تجلس مكانه، رفضت قليلًا، وبعد إصرار منه جلست وشكرته بابتسامة لطيفة. ظلّت تنظر في النافذة، وعيناها لم تُفارق وجوه المارة بالخارج وواجِهات المحلات غير المتناسقة، بينما الشاب عيناه لم تفارقا وجهها الذي يبدو عليه البراءة، ولكن يكسوه الحزن..كان الصمت هو المُخيِّم على الأجواء،بادر السائق بفتح المذياع على إذاعة الأغاني،التي مزجت في أغانيها بين القديم والحديث.. أنت لا تعرف إن كان الصمت المُغلّف لهذه الأجواء كان بسبب الإنصات للأغاني، أم أن الناس لا يتحدثون في هذا الوقت المُبكّر من اليوم؟! فجأة.. بَدَا عليها وكأنها تبكي، لم يلحظ ذلك سوى ذلك الشاب الذي ظَلّ يختلس النظر إليها من آنٍ لآخر،ولكن المفاجأة الأكبر أن الشاب كان يبكي هو الآخر، ولم يلحظ ذلك سواها أيضًا.

السائق بصوت أجَشّ:

– الآخر يا اخواننا. هَمَّ الجميع بمغاردة الباص عداها، أخذت وقتًا كي تُجفِّف من دمعها المُنساب على وجنتيها،أخذ السائق يستحثها على النزول، وبالفعل نزلت.. لَمَحَت ذاك الشاب واقفًا يعبث بهاتفه، ففطنت أنّه ينتظرها. مَشَت بضع خطوات حتى سمعت من يقول لها:

– لو سمحتي يا آنسة! التفتت نحو الصوت فوجدته هو كما توَقّعت:

– نعم. مُترددًا بعض الشيء:

– ممكن أسأل حضرتِك سؤال؟

– كُنت ببكي ليه؟! مش كده؟ باسمًا:

– بالظبط كده!

– لنفس السبب اللي إنت بكيت عشانه! حدّق في عينيها برهة، لكنه تذكّر أنه بهذا الشكل أخذ من وقتها أكثر مما ينبغي..ابتسم بوِدٍّ، ثُمّ شَكَرَها وانصرف! ترك كلٌّ منهما الآخر وكلاهما يشعر بنشوة وسعادة تغمران وجدانه. في هذه الأثناء كان السائق يطفئ سيجارته ويغلق المذياع على صوت سميرة سعيد تشدو: «يمكن محتاجة حُب يهزني ويلفّني ويجيني من كل اتجاه.. يمكن محتاجة قلب يحسّني ويرد مشاعري تاني للحياة.. عندي حالة ملل».



كالنَّمل

ثلاثة أشهُر كانت كفيلة بأن أتيقن بأنه فنّان، ونحن كجيران في عمارة واحدة لا نُقدّره. من أين أتاني هذا اليقين، وكل ما أعرفه عنه مبني على السماع؟!

«اسمه، يحيى، ووسيم كده.. بس مجنون حبتين!»، هكذا قالت جارتي طالبة الثانوية.. فلتت مني ابتسامة خبيثة لعلمي بما تخبئه لفظة «وسيم» التي نطقتها بحرارة مراهِقة. بعد فترة من الأسئلة المتوارية عرفت أنه رسّام، ويسكن قبلي بأشهر بسيطة في العمارة، وحيد كما يجزم الجميع. لم يروِ لي أحد ممن سألتهم عنه، أنه تجاذب أطراف الحديث معه، ولو لمرة واحدة، الثابت والمؤكد أن علاقته بالجميع منقطعة تمامًا لرؤيته النادرة أو المعدومة، إلا أنا!.. نعم، إلا أنا! فأنا الوحيدة التي اقتحمت عالمه الغامض المُحبّب لقلبي منذ قرأت قصص أحمد خالد توفيق في الإعدادية، وأعتقد أيضًا أن من تعوّد على العيش منفردًا، وهو في السابق كان معتادًا على معرفة التفاصيل التي تدور من حوله، من المستحيل أن يتخلّى عن تلك الخَصلة بسهولة، خاصةً

وأنني من المُحبين لهذا النوع من البشر.. هذا النوع الذي يُذكّرك بأبطال روايات أجاثا كريستي.

***

كانت البداية عندما دلفت من باب العمارة آتية من المستشفي في الواحدة بعد منتصف الليل، ووقفت خلف الباب أمسح حذائي المطلي بالطين بفعل المطر..فُتح باب العمارة عن آخره بطريقة عصبية، ليدلف منه شخص مهرولًا نحو السلم، لم يُعِرْني اهتمامًا، ولم يعتذر بسبب ارتطام الباب بيدي اليسرى ولا حتى سمع الـ «آآآآآه» التي خرجت من فمي. اللوحة التي يحملها في يده أكدت لي أنه الشخص المنطوي، الذي يسكن في الشقة المقابلة لشقتي التي لم أرَ فيها ثمّة ضوءاً منذ أن سكنت. مرت عدّة ليالي على تلك الليلة قتلني فيها الفضول، لكنني بدأت أرسم له شخصية من وحي خيالي، لعلّه رسّام يخرج ليلًا ليرسم أو يبيع لوحاته، ولكن، لِمَ ليلًا؟! كل الفنانين يعشقون الليل، فهُم مجانين، وهو مثلهم كما أخبرتني طالبة الثانوية. أعيتني الأسئلة، ولكن لِمَ كل تلك الأسئلة؟! أو بالأحرى لماذا أهتم به هكذا؟! هل لأنه وحيد مثلي؟ أم أنني أُعجب بجنونه البادي للجميع؟ أم أحسده عليه؟ ألا لعنة الله على غريزة الفضول! ذاب الفضول، وانفضت كل علامات الاستفهام عن رأسي في تلك الليلة. كنت عائدة متأخرة كعادتي من المستشفي، وجدت باب شقته مفتوحًا على غير العادة،

أصوات تكسير وارتطام أشياء ببعضها البعض تأتي من الداخل، وصوت مختنق يردد: «أنا اللي عملت كده في نفسي.. بيعاقبوني»!

لا أعرف من أين أتيت بهذه الجسارة التي جعلتني أطرق الباب، فلمّا لم يُجبني أحد، دخلت، فوجدته جالسًا على الأرض وفي يده لوحة محطّمة، دنوت منه بضع خطوات،وما إن رآني حتى مسح دموعه سريعًا، وحدّق فيَّ حتّى خِفتُ بعض الشيء، استجمعت بعضًا من قواي، وخرج الصوت منّي خفيضًا مرتعشًا:

- أنا دينا.

-......

- أنا دكتورة دينا اللي ساكنة في الشقة اللي قصادك.

-......

كِدت أن أجري نحو شقتي وأغلق الباب من خلفي بإحكام، لكنّي لا أعرف ما الذي دفعني لاستكمال هذا الفعل الطائش.. لعلّه الفضول!

- أنا آسفة إني دخلت بالطريقة دي. أصلي سمعت أصوات كده يعني!.. وبعدين لقيت الباب مفتوح!... فخُفت يعني.. إنت كويس؟!

وبنظرة سريعة على جسده، وجدت يده اليمنى تنزف.

- إنت بتنزف! ثانية واحدة هاجيبلك شاش وميكروكروم واربطلك الجرح.

خرجت مُسرعة إلى شقتي، أتيت بحقيبة الإسعافات الأوّلية وأشياء أخرى، وعُدت فوجدت باب شقته مُغلقًا! طرقت عدة طرقات فلم يرد. شعرت بالإحراج بعض الشيء وتراجعت خطوتين للخلف نحو شقتي، ولكن قدمي أخذتاني إلى باب شقته مُتجاوزة حدود اللياقة وناديت:

- يا أستاذ.. يا أستاذ.. الجرح شكله كبير وممكن يبقى خطر عليك. عُدت إلى شقتي، لم يمر وقتًا طويلًا على جلستي على الأريكة الموجودة أمام التلفاز المغلق.

طرقتان خفيفتان على الباب كانتا كفيلتين بأن أهرول نحوه، فأفتح لأجده أمامي..لأول مرة أنظر إلى عينيه.. لم يُمهلني أن أتفحص شكله جيدًا،عندما نطق جملة وحيدة «أنا آسف» وهَـــمَّ بالانصراف.

استوقفته حين مسكته من ذراعه:

- آسف؟، على إيه بس؟! أنا اللي آسفة إني دخلت كده.. وبعدين إنت متعوّر يعني! مُقاطعًا: خلاص أنا بقيت كويس.

- لا، كويس إيه!.. متخافش أنا دكتورة شاطرة على فكرة يا أستاذ... شوفت بقى أدينا جيران بقالنا فترة ومعرفش اسم حضرتك إيه!

- آدم.. اسمي آدم.

- إتفضل يا أستاذ آدم.

تردد قليلًا قبل أن يدخل ويجلس على نفس الأريكة التي كنت جالسة عليها، أتيت بحقيبتي، تعمّدت التباطؤ وأنا أقوم بتنظيف الجرح، ورش الميكروكروم، ولَفّ الشاش على يده، علّمني أعرف عنه الكثير باستثناء الإجابات عن أسئلتي.. «28 سنة.. المفروض إني برسم وببيع لوحاتي».

- خلاص كده يا أستاذ آدم، أنا كده خلّصت.. يومين وتيجي أغيّرلك على الجرح.. ألف سلامة.. وخلّي بالك من نفسك. وضع يده في جيب بنطاله، فهمت أنه يريد إعطائي مقابل إسعافه.

- عيب يا أستاذ آدم إحنا جيران!.. وبعدين أنا معملتش حاجة تستاهل.

- لا لا.

- لا لأ إيه؟! مش جيران ولا إيه؟!

- لا، أنا مقصدش.. أنا أقصد إن ده حقك.

- هو أنا أطول أعالج فنّان كبير زي حضرتك!

- فنان؟! - آه طبعًا. ده أنا شوفت كام لوحة، في الدقيقتين اللي وقفتهم في الشقة، في منتهى الجمال.

- متشكر جدًا. بعد إذنك. تركني وانصرف

***

تُرى ما الفكرة التي أخذها عنّي؟ امرأة فضولية، كما تُتهم دائمًا أغلب النساء؟! أم دكتورة عالجتني لمجرد رؤيتها لي وأنا أنزف؟ أو لعلّه لم يسأل نفسه كل تلك الأسئلة من الأساس! لم أكن أتخيّل في يوم من الأيام أنّي سأنجذب لشخص بتلك الطريقة! سبب انجذابي ليس فيه ثمّة عواطف أو شيء من هذا القبيل.هو شخص يُشبهني كثيرًا، وحيد، وأنا وحيدة.. نعم، أنا لست فنّانة مثله لكنّي أعشق الفن وأُقدّره.. لماذا أُثقل على نفسي بكل تلك التُّرهات؟!، ففي ترك الأمور تسير على سجيتها مُتعة خفيّة وجمال خاص.

مرّ أكثر من يومين ولم يأتِ كما وعدني، أو هكذا أزعم أنه وعدني! إلى أن وجدته ذات مرّة مُصادفة أمام باب شقته:

- صباح الخير.

- صباح الخير.

- مش ناوي تغيّر على الجرح ولّا إيه؟

- إن شاء الله.

- طيب أنا هاجي أغيّرلك على الجرح وبالمرة أتفرج على لوحاتك إن ما كانش عندك مانع.

لم أمهله ليرُد.. دخلت، وأتيت بالحقيبة، وعدت إليه في أقل من دقيقة.. لم يأخذ الوقت الذي قطعته في التغيير على الجرح أكثر من ثلاث دقائق على أقصى تقدير، بعدها هبّ واقفًا:

– تشربي قهوة؟

– موافقة.. مظبوطة.

فلتت من ثغري ابتسامة تحوّلت إلى ضحكة عندما تذكّرت أنه لم يسألني عن قهوتي، إن كنت أشربها سادة أم زيادة أم مضبوطة. تركت عينيي تتجوّلان في اللوحات التي ترمز جميعًا للوحدة..حُبّي للفن جعل منّي متذوّقة جيدة أو هكذا أظن...لوحتان ظلّتا عالقتين في ذهني لدرجة أنني كدت أبكي من فرط جمالهما! واحدة لفنجان قهوة فارغ، والأخرى رسمها لنفسه.

خرج من المطبخ حاملًا فنجانًا وحيدًا، قدّمه لي:

– ما عملتش لنفسك قهوة ليه؟!

– أصل مفيش غير فنجان واحد.

– ياه للدرجة دي ماكنتش متخيل إن فيه حد يدخل يشرب معاك قهوة؟!

أخذت رشفة ثم شرعت في تغيير موضوع بدأته وتمنيت استكماله!

– بس حلوة القهوة.

- متشكر.

وآسف إني مسألتكيش قهوتك إيه.

ضحكنا معًا ضحكًا متقطعًا، وأعادني شيطاني اللعين «الفضول» للسؤال عن سبب ما فعله بنفسه يوم جُرِح! أو بالأحرى عن سبب عُزلته تلك!

- ممكن أسألك سؤال؟

- إتفضلّي.

- ليه عملت في نفسك كده؟!لو مش حابب تحكي، مش مشكلة، ومُستعدّة أمشي حالًا.

- عندك وقت تسمعي؟

- طبعًا.

قُلتها بعد أن جلست على الأرض واضعة فنجان القهوة بجواري.

- اسمي آدم، من صغري بحب أرسم جدًّا، أمي لما شافت فيّ موهبة الرسم شجعتني أدخل كلية فنون جميلة، وفعلًا حصل، اتخرجت وبدأت أشتغل شغل ذاتي، وهو إني أبيع لوحاتي بنفسي، ألِفّ على الأماكن اللي بتبيع لوحات، وكنت مستمتع جدًّا بكده، أمي كانت فرحانة بيا أوي وأنا كنت مرتبط بيها جدًّا، لحدّ ما جه اليوم اللي تفارقني فيه، حسّيت إن الدنيا مبقاش فيها حاجة تستاهل أكمِّل فيها،

قررت أبيع الشقة لأنها بقت واسعة عليَّ وأسيب المنطقة كلها بجيراني وأصحابي، واشتريت الشقة دي.. المهم عشان مطوّلش عليكي، من كام يوم كنت بعمل لنفسي قهوة، شُفت حاجة غريبة جدًا، ببص على الرخامة لقيت سرب من النمل ماشي وبيقابل سرب تاني، هتصدقيني لو قلتلك إني لقيت كل نملة في السرب بتحضُن النمل اللي في السرب المقابل! لأ وبتبوسها كمان! قُلت لنفسي:

ياااه!، بقي إحنا اللي بشر مش عارفين نبقى زي النمل كده! إفتكرت إن أنا اللي سِبت كل الناس اللي يعرفوني وانعزلت عنهم! قفلت البوتاجاز وغيّرت هدومي وخرجت جَري عشان أرجّع علاقاتي بكل اللي كان يعرفني.. تخيّلي، لما رُحت للكل، إيه اللي حصل؟!

أوشكت أن أقول له: «كفي بالله عليك، فأنا مُتخيّلة ما حدث»، لكن دموعي وحرصي على عدم مقاطعة استرساله منعاني. — إيه ده إنتي بتعيّطي!

– كمّل حصل إيه؟

– كلهم اهرّبوا منّي، كأنهم بيعاقبوني!

– حتى لو إنت اللي غلطان، المفروض يتفهّموا سبب انعزالك ده إيه!، وهما اللي يدوّروا عليك، لو بيحبوك بجد!، ده حتى النمل زي

ما انت بتحكي بيقابل بعضه بالبوس والأحضان، مظنّش يعنى إن كل النمل ده يعرف بعضه!

- مش عارف ليه حكيتلك إنتي اللي حصل ده!

- أفهم من كده إننا ممكن نبقى أصحاب؟

ضاحكًا:

- زي النمل كده؟

- زي البشر اللي بجد.

- تيجي نخرج؟

- ياريت.

- يلّا بينا.

- إستنى هنا!.. هاتخرُج بدقنك دي إزاي؟! ادخل احلق دقنك والبس حاجة شيك كده تليق بفنّان كبير.

- حالًا قُلت لنفسي:

«أيتها البائسة هأنتِ أخرجتِ شخصًا من عُزلته ليُخرجكِ من وحدتكِ».. مرّت بذهني تلك الأسئلة التي سألتها لنفسي قبل اليوم، وضحكت من سذاجتها، أو بالأحرى ضحكت من سذاجة الجنس البشري الذي يُجهد نفسه بأسئلة لا طائل منها ولا جدوى! لو أنه ترك الأمور تسير على سجيّتها؟! ففي ترك الأمور تسير على سجيّتها مُتعة خفيّة وجمال خاص.

سعاد حسني



عانيت كثيرًا في البحث عن حذائي الموجود أسفل سريري، فلم أجده، ظننت في البداية أن ذلك بسبب الظلام، وتيقّنت بعد فترة أن السبب في الدوار الذي أصاب رأسي منذ يومين من قلّة النوم، تقلّبَت رأسي ذات اليمين وذات اليسار، قُمت مُتكاسلًا من الفراش مُتجهًا صوب الكمبيوتر كي أدوِّن «بوست» على الفيسبوك عن المرأة التي جذبت النوم من عيني.

***

ضغطّت زر التشغيل وفي عيني «غشلقة» لا تمحوها سِكّينة معجون! انتظرت كثيرًا صوت الـ **Windows**، ضغطّت ريفريش مرارًا، فاكتشفت بعد فترة أنني كنت أضغط في الفراغ! هربَت من ثغري ابتسامة تُخفي ضحكة على حالي المُزري. على كل حال فتحت صفحة جوجل ومن ثَمَّ فيسبوك، حمدت الله أن المِيل لا يزال مكتوبًا في الخانة المحددة له، وأنني الآن أمام مهمة بسيطة وهي كتابة الرقم السري الخاص بي.. «ما الذي يُجبرك على كل هذا العناء؟!».

قُلتها لنفسي بعد الضغط علىenter، أشعلت سيجارة كَيّ تُعيد بناء ما هَدّم من جدران عقلي المُتهالكة، خرج الدخان محمّلًا بأول جملة في البوست المُزمَع كتابته «لو كانت سعاد حسني بيننا الآن!» لمحت بطرف عيني في أعلى الصفحة على اليسار تنبيهًا بأن هناك من يريد أن يكون صديقي، تركت البوست وبحركة تلقائية تحرّك الماوس نحو الإشعار كي أتحقق من هوية الطالب، فوجدت صورة البروفايل عبارة عن قمر مُضيء في خلفيّة مُظلِمة تمامًا، نظرت للاسم فوجدته (سُعاد حسني)! لم أشعر بسيجارتي وقد تحوّلَت لرماد سقط أغلبه على بنطالي. صُعِقت حين سمعت صوت تنبيه الرسائل، وعلى إثره وجدت رسالة من صاحبة الأكاونت الذي يطلب صداقتي

– لقيتك إتأخرت في قبول الطلب قُلت أكلّمك أفضل.

– مين حضرتِك؟

– أنا اللي كُنت بتكتب بوست عنها دلوقتي!

– هو مش حضرتِك الله يرحمِك دلوقتي، أقصد يعني.... (مُقاطِعة) بضحكة عبارة عن هههههههه.. على الفور تذكرت ضحكتها الشهيرة في أغنية (الدُنيا ربيع)، وأخذت أُنغِّم الضحكة المكتوبة على وقع الضحكة التي ترنّ في أذني، جذبتني ثانية من هذا الشرود الطفولي حين كتبت:

– لسّة كل ما بتيجي سيرتي قدامَك بتبكي؟!

- أصل أنا بحبِّك أوي.

- عارفة.

- وعارفة إيه كمان؟!

- عارفة إنَّك قُمت مخصوص دلوقتي عشان تكتب بوست عَنّي.. بس على فكرة، أنا اللي صحّيتك وكنت عايزة أطلب مِنّك طلب.

- أؤمري يا أستاذة سعاد.

- قولّي يا زوزو أحسن.

- أؤمري يا زوزو.

وبجانب تلك الجملة أرسلت « إيموشن » ابتسامة.

- يا ريت تغيّر الجُملة اللي بدأت بيها البوست.. سلام دلوقتي.

قرأت تلك الجملة كثيرًا حتى أفهم ما تعنيه، لدرجة أني نسيت أن أستعطفها أن تُمهلني في الحديث معها بعض الوقت!، تحركت يدي بالماوس إلى البوست وبدّلت الجملة المكتوبة بـــ «ابحثوا عن سعاد بداخلكم فهي موجودة دون شَكّ»..

بعد فترة من تقليب رأسي، مرّة ذات اليمين، ومرّة ذات الشمال، وجدت الحذاء بعد طول انتظار، وبعين نصف مفتوحة نظرت على الكمبيوتر فوجدته لا يزال مُغلقًا ولسان حالي يردّد جُملة واحدة: «ابحثوا عن سُعاد بداخلكم، فهي موجودة دون شَكّ».



الفهرس

